
محمد محمود زيتون
حرائق القاهرة
في التاريخ

محمد محمود زيتون



« صفحات مجهولة تنشر لأول مرة »

الطبعة الأولى
١٩٥٩

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع ابراهيم باشا بعابدين

فكرة . . لا تاريخ

من الأحداث العظام . . ما يكون له دوى مستمر . . على مر الأيام . . ومع ذلك تخفى حقائقه على التاريخ . . وغالبا ما يبذل المفكرون جهوداً مضنية . . للحصول على هذه الحقائق . . فتذهب جهودهم أدراج الرياح . .

ونحن — بعد مطالعاتنا للتاريخ — : قديمه وحديثه — لا نريد أن نجتره اجترارا . . وإنما نحن نستعيد وقائع معينة . . . لنخرج بفكرة معينة . . نضاعف بها الكرات الحمراء فى دمائنا . . ونتحصن بدفئها من غوائل المبادىء الوافدة . . .

وصيد « الفكرة » من الماء العكر . . ليس بالأمر الهين . . على ما يبدو . . كذلك نشرها . . يجب ألا يكون من أجل الاستهلاك المحلى . . وإنما من أجل الفكرة أيضا . .

هذه الصفحات . . مثلا . . لم تكن تصلح للنشر من قبل . . لأنها كانت صورا مهزوزة إلى حين . . وكانت غير مكتملة العناصر فى بعض أجزائها . . كما أن الأقلام الحرة . . لم تتناول الموضوع بالتحليل الدقيق . . فلا عجب إذا كان القارىء الظامىء غير ملوم .

وآن الأوان . . لكى تأخذ هذه الصفحات نصيبها من تراث الشعب . . بعد أن حاول المغرضون طمس معالمها . . لستر جرائمهم هم . . وغاب عنهم أن الحق سيف مسلط على التاريخ . . سواء نطق او سكت . . وعلى ذلك لن يجد القارىء الواعى بين يديه كتابا فى التاريخ . . أو السياسة . .

أو الأذيب .. وإنما سيجد صفحات مجهولة عن « فكرة » كانت فى حالة تميع . . والآن تبلورت . . وتجوهرت .. فهى بهذا تستحق أن تتحول فى الحال والاستقبال .. إلى طاقة روحية تدفع إلى أمام.. وترفع إلى أعلى

فى خلال سبع سنوات من « حريق القاهرة » .. طال الوقوف على الأطلال والأنقاض . . لا للبكاء والرثاء . . ولكن للتنقيب فى الرماد الهامد .. فأمكن الوصول إلى « فكرة » واضحة . . عن حدث كان له مقدماته ونتائجه . . فإن نفعت فهذا عين المراد . . وإلا فهى المحاولة الصادقة.. لسد الفراغ.. وحفز العقول . والتأمل العميق .. فى «الثورة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ... ثورة شقت طريقها فى الحيـاة .. فكانت أكبر حدث سجله التاريخ لمصر - أم الحضارة - فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين ..

وهى بعد .. نفحة .. من وادى الخلود.. نقبسها لأبناء هذا الجيل:. من هالات الشهداء .. شهداء القنال .. الذين كتبوا بدمائهم الزكية النقية.. صفحات البطولة والرجولة .. ناعمين فى الفراديس العلا . . فرحين بما آتاهم الله من فضله . . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم .. رضى الله عنهم ورضوا عنه .

يناير ١٩٥٩ — محمد محمود زيتون

من أجل مصر ..

إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦
وتأميم شركة القنال

سجل التاريخ المصرى الحديث ـ فى خلال خمس سنوات ـ حادثين من أهم الحوادث التى تستحق الذكر والفكر ، أولها إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، والآخر تأميم شركة قناة السويس .

وفى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، فى نفس الساعة التى كان يلقى فيها جمال عبد الناصر خطابه بالمؤتمر الشعبى المنعقد فى ميدان التحرير بالإسكندرية ، معلنا تأميم شركة قناة السويس ، كان مندوبو الحكومة يتسلمون مقاليد الشركة من الأجانب ، وإدارتها لحساب الشعب المصرى ، وأمنها باسم القانون .

هذان الحدثان ، اللذان وقعا فى خلال خمس سنوات من تاريخ بلادنا ، لها حق التأمل والتدبر . . على كل مواطن فى هذا الجيل . . والجيل الذى يليه . . وما سيعقبهما من أجيال . . وذلك لإستخلاص

« الفكرة » التى تنطوى عليها الحوادث . . والإفادة من الملابسات التى أحاطت بها .

ومَن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره

— كفاح الشعب —

كان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ نشيد كل مصرى .. لأنها استنفدت أغراضها .. وأصبحت ـ كما قال أحمد لطفى السيد ـ غير ذات موضوع ، ولم يعد بد من إلغائها .. لتحقيق الجلاء عن مصر ، ولاستكمال سيادتها واستقلالها .. بعد أن تعاقبت حكومات وحكومات . . كانت كلها تدير فى فلك الإنجليز ،، وتأتمر بأمرهم ،، وتحتمى بقوات الاحتلال.. الجاثمة على صدر الوطن .. لا فرق فى هذا بين حكومة وحكومة ،،حزبية أو غير حزبية ، الكل فى البلاء سواء .

وما من مصرى إلا ويذكر أن فاروقا . . والملوك والأمراء والسلاطين والخديويين . . من آبائه وأجداده ـ أو على الأصح الذين كان يقال إنهم آباؤه وأجداده ـ كانوا جميعا « عملاء » للاستعمار التركى والفرنسى والإنجليزى على التعاقب . .

لهذا وجد الشعب المصرى نفسه مضطرا لتحمل أعباء الكفاح وحده . . هذا الكفاح الذى استطال واستعرض . . فاتسعت رقعته .. وتعدد الخصوم . وبعدت المسافة بين كل مرحلة وما يليها من مراحل .. أصابته فيها العثرات بعد العثرات .. . وكلما أوشك على إدراك أهدافه .. عاد القهقرى . . لتعويض ما كان قد فاته .. واحتاج إلى زعامة رشيدة .. فلم يجد . .

وهكذا سار كفاح الشعب فى مدى قرون . . يتعثر فى خطاه . . بطيئا بطيئا كأنه على ظهر سلحفاة . . وفى العصر الحديث .. كان أكثر تعثرا . . وأقل سرعة مما كان . . فقد تحالفت ضده قوى ثلاث .. لكل منها جبهتها . . تعمل فى فلكها الخاص بها ، وتدور فى الوقت نفسه فى فلك القوتين الأخريين . . . فكان عليه أن يتعملق فى مواجهة تلك القوى الثلاث :

١ ـ أسرة محمد على . .

٢ ـ والاستعمار البريطانى . .

٣ ـ وطبقة الحكام . . .

وما كان لجبهة دون أخرى لتقف وحدها فى وجه المقاومة الشعبية .. ولكن الجبهات الثلاث متحدة وجدت نفسها ملزمة لأن تتماسك وتتساند فيما بينها ، وبين الجبهتين الأخريين .. ضمانا لبقائها . . وصمودها طويلا لانتفاضات الشعب . . المتربص لها منفردة ومجتمعة . .

وهذا هو السر الوحيد . . فى أن الشعب قد أطال فترات كفاحه عامدا متعمدا خشية الانتكاس ... والانتقال من حالة سيئة يعانيها إلى ما هو أسوأ منها . . وكانت الظروف تخدمه من تلقاء نفسها .. عندما كانت إحدى الجبهات المعادية ينتابها التصدع .. فتقف بباب الشعب تتمسح به . . وتتملقه . . ولكنه كان على حذر :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وظلت شجرة الحرية . . دائمة الخضرة . . وجمرة الثورة . .

دائمة الوقود . . لا تكاد تخبو فى ظاهرها حتى تتألق وتتوهج . . فتمد الأحرار بما يروون به نفوسهم الظمأى إلى الشهادة فى سبيل الوطن ..

وكلما اشتد ضغط المظالم على الرءوس .. وتمكن الشعور بالفوارق من النفوس .. زادت درجة الحرارة ارتفاعا .. وزادت دماء الشهداء تدفقا .. وكان للتوعية الشعبية ميادينها التى أسهم فيها رواد الحرية .. فضلا عن المياه الجوفية .. الدافقة فى سكون رهيب .. الماضية إلى غايتها المرسومة .. بكل روية وأناة .. ثم واتتها عوامل (التبلور) فصارت « ثورة »

كانت هذه الثورة تعرف ـ غداة ظهورها فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ـ « بحركة الجيش » وأبى الجيش والشعب إلا أن يطرح كل منهما على الآخر فضل تحقيقها .. فالشعب يقول « ثورة الجيش » عرفانا بما للجيش من فضل .. فى التصميم والتنفيذ .. والجيش يقول « ثورة الشعب » لأن الشعب حماها وافتداها » ، وظل يرعاها حتى بلغت أهدافها القريب منها والبعيد ، وحتى عززت مراكزها ، وحطمت جميع القناطر التى خلفها ، إلى غير رجعة .

ولا خلاف فى الواقع ، لأن الجيش جيش الشعب ، والثورة هى ثورة الجيش ، وإذن تكون ثورة الجيش هى ثورة الشعب

ـــ تلك بضاعتنا . . . ـــ

ولا جدال فى أن الثورة ، قد نجحت ، ومضت فى طريقها قدما

إلى الأمام ، لا تلوى على شيء ، لم تتراجع لأنها صممت على الا تتراجع ، فكان ضربا من الجنون أن يداعب الملكية خيال العودة إلى مصر ، أو أن يساور أحلام الإقطاعيين توبة من النجاسة الحزبية ، ولو تطهروا سبع مرات إحداهن بالتراب ، والسبب معروف ، إذ أن الشعب لم يسمح ولن يسمح بدخيل يشق صفوفه ؛ ولا بدم غريب يسرى فى كيانه ، فقد استفرغت الثورة ما فى كل صدر من طاقة كامنة ، وتولت هى توجيه كل شحنة نحو غايتها ، ما كان منها سالبا وما كان موجبا .

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وهنا يتساءل البعض : إذا كان الشعب قد احتضن الثورة ، وافتداها ، وتعلق بها ، فما هو السبب فى ذلك ؟ والجواب حاضر إذا عرفنا أن عنصرا هاما كان يعوزنا فى كفاحنا ، من زمن بعيد ، هذا العنصر الذى افتقدناه ، والذى كان لا بد منه ليكون تيار كفاحنا مستمرا غير متقطع ، هو « التكتيك » .

فطن إليه الضباط الأحرار وحدهم ، لأنهم تحققوا من إفلاس الزعامة الحزبية فى مصر ، فزهدوا فيها ، واستطاعوا بتماسكهم - فيما بين بعضهم بعضا من جهة ، وفيما بينهم وبين الشعب من جهة أخرى - أن يردوا للوطن اعتباره ، وللشعب داره ، وتلك بضاعتنا ردت إلينا .

واستطاعوا أيضا بفضل هذا (التكتيك) أن يضعوا حدا لمائة وخمسين سنة ، تحكم فى رقابنا خلالها فئة مشردة من (قولة) ؛ قال السلطان يوما عن رأسها الأكبر محمد على بأنه لا أصل له ولا فصل...

محمد على الذى قال سنة ١٨٠٥ عندما خلا له الجو: « اليوم طاب لى ملك مصر ، فلا خوف على »

وانقضى قرن ونصف قرن من الزمان .. بطرد فاروق من جنة تجرى من تحتها الأنهار . . كانت ثمارها له ولأسرته خالصة .. لهم المغانم .. وعلى الشعب المغارم .. وكأنى بفرعون وقد نفخ الشيطان فى منخريه يقول « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى » .

وتنفس الشعب ، وعادت الأرض إلى الذين طالما حرثوها بسواعدهم ، ورووها بدمع العين وعرق الجبين .. بل بدماء الشهداء الأبرار من آبائهم وأبنائهم . . رجالا ونساء .. شيوخا وأطفالا . . عادت إليهم فلم يعد يتحكم فيهم تركى أوشركسى .. صاحب سعادة .. أو صاحب معالى .. أغا أو كتخدا .. وصدق الله حيث يقول :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

ـــ فن التكتيك ـــ

من هنا كان الفرق واضحا بين شعب سنة ١٩١٩ وشعب سنة ١٩٥٦ ، فالأول لم يكن له بواعث وأهداف .. لأن التمرد والسخط والمظاهرات والخطب الرنانة وإلهاب الشعور . والهتاف « بالاستقلال التام أو الموت الزؤام » ... كل ذلك وما إليه لم يكن يصلح وقوداً لإنضاج ثورة ، ولم يكن يصلح أساسا لخلق زعامة ذات رصيد .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، لم تتخذ الوسائل الفعالة ، والسبل الواقعية للوصول إلى الغاية . . وبعد هذا وذلك لم يكن الشعب قد بلغ

من الرشد. درجة يتمكن بها من التمييز بين « المبدأ » و« الشخص » .. فكان الهتاف يشق الفضاء عاليا مدويا « الاحتلال على يد (سعد) .. ولا الاستقلال على يد (عدلى) » .. فانحلت العروة ، وانقلبت عملية تعبئة الجهود إلى « تفريغ » الشحنات الشعبية .. وختاما . ركب الخليفة وانفض المولد .

ولما كان جمـــال عبد الناصر .. يدرس « فن التكتيك » فى الكلية الحربية وممن خاضوا غمار معركة فلسطين . فقد أدرك خطورة هذا الفن ، لا فى الحرب وحدها .. وإنما فى كل عمل إنسانى .. فى الحياة العامة والخاصة .. وانتهى إلى أن هذا الفن هو المنهج الفكرى لكل حركة ، بذلك تقول طبيعة الأشياء .

وكان صدى هذه الفكرة كتاب « فلسفة الثورة » وفيه يقول أستاذ « الفلسفة الحربية » جمال عبد الناصر :

« ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان : ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه ، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد ، لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ، ولكنها لم تعشهما معا ، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فإن التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن نعيش الثورتان معا فى وقت واحد »

وهكذا خرجت الثورة من عقل صاحبها ، إلى الهواء الطلق ، واضحة

المعالم ، مفهومة الدوافع ، مرسومة الغايات ، فى خطوط عريضة بارزة، قائمة على التحليل والتدقيق ، والرأى والمشورة ، وليست من واردات الخارج ، بل كتب عليها ، « صنع فى مصر » وهذا أكبر ضمان لبقائها ، ثم إنها لم تحجب عن الشعب ملامحها من أول لحظة : لا تشوبها دعاية متكلفة مبتذلة ، ولا تسوقها سفسطة أو مغالطة ، لم تتنكر لعبر الماضى ، ولم ترتجل لبناء المستقبل ، فكانت مفصلة على قد الشعب المصرى تماما .

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

الطرق السلمية المشروعة

ـ أحزاب . . . ولا كرامة ـ

إذا أمعنا النظر فى فلسفة « حزب الوفد » باعتباره كان أقدم الأحزاب المنحلة . . وتولدت منه أحزاب أشبه بالانسلاخات . . كالحزب السعدى . . وحزب الأحرار الدستوريين . . وحزب الشعب . . وحزب الاتحاد . . وحزب الكتلة الوفدية . . نرى أن هذا الحزب قد رسم لنفسه ـ منذ نشأ ـ خط السير السياسى ، كما ينص على ذلك منطوق المادة الثانية من هذا القانون حيث تقول :

« مهمة هذا الوفد : السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا السعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما »

والعجيب فى الأمر أن أعضاء هذا الحزب الذين تضمنت أسماءهم المادة الأولى . . قد انفرط عقدهم . . وذهبوا أيدى سبأ . . ومن لم يمت منهم انفصل عن الوفد ليستقل برأيه فى حزب من تلك الأحزاب المولدة . . ومع ذلك لم يبق فيه من مؤسسيه غير مصطفى النحاس . . الذى استطاع أن يضم إليه أعضاء آخرين، تقلبوا هم بدورهم، بين الثبات

على المبدأ ، وبين الانسلاخ .. إلى أن قضت الثورة قضاءها المبرم ، بحل الأحزاب جميعا ..

ومن المؤسف له حقا .. أن نقدا واحدا من النقود الحرة .. لم يوجه فى يوم من الأيام إلى مبادىء حزب من الأحزاب .. أو على الأقل إلى حزب الوفد .. والمادة الثانية من قانون تأليفه بالذات .. لأن محور الصراع الحزبى ، كان يدور دائما حول أشخاص الأحزاب .. وسلوكهم الشخصى .. وكثيرا ما كان يصل إلى نهش الأعراض .. وكشف العورات .. والشبشبة والردح .. وكان للشعب من وراء ذلك مادة غزيرة صالحة للتسلى والفرجة .. كما حدث فى مقالات « مخالب القطط » الوفدية .. و « الكتاب الأسود » الذى نشره « مكرم عبيد » بعد انفصاله من الوفد .. وأدى إلى مهاترات تناولت الأمهات بالتجريح .. ونشر صور وثائق الزواج فى الصحف .. ثم اختتمت بهذه الدراما العنيفة : تبادل القبلات .. وقد حلا لبعض الشعراء الظرفاء أن يسجل هذا الحدث التاريخى بقصيدة مطلعها :

دقوا الطبول وهيئوا الأجراسا اليوم قبّل (مكرم) (النحاسا)

وغنى عن البيان أن محور ارتكاز حزب الوفد هو « الطرق السلمية المشروعة » .. ومتى ؟ فى وقت رزحت فيه مصر تحت نير الاحتلال .. مع أن الكرامة العقلية تأبى على كل حر أن يسالم عدوه الذى يحتل بالقوة المسلحة أرضه على الرغم منه .. مسالمة دائمة مؤبدة .. تصير فيما بعد مبدأ لحزب سياسى .. له براج ومناهج .. وغايات ووسائل ..

إنه إذن ليس سعيا إلى الاستقلال .. وإنما هو انحلال .. ورضى

بالاحتلال ، وهذا تراثنا ينطق بالحق ، فى القرآن الكريم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وفى الحديث الشريف « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » و « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » ، وفى الشعر الرصين :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله هوانا وإن كانت قريبا أواصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه فدعه إلى اليوم الذى أنت قادره
وسالم إذا ما لم تكن لك حيلة وأقدم إذا أيقنت أنك عاقره

وهكذا خرج حزب الوفد المصرى على تراثنا القومى ، وشذ عن مقررات الكرامة الإنسانية ، فلم يعد له لدى الشعب أو التاريخ رصيد مدخر .

ــ الحليفة الغادرة ــ

ومضت سنون على توقيع المعاهدة ، التى أطلق عليها النحاس « معاهدة الشرف والاستقلال » ، وبالغ فى الدعاية لها ، وتعميق الشعور بحبها .. حتى أطلق اسمها على كل مرفق : طريق المعاهدة ، حلاق المعاهدة ، مسمط المعاهدة : وهذا أحد المتطرفين فى الوفد يسمى بنته « معاهدة » ، تيمنا وتبركا بالمعاهدة طبعا .

واشتعلت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ وقامت حكومة « تشرشل » وقمدت فوجدت حكومة النحاس مبعدة عن الحكم ، فلم تستطع بريطانيا أن تعيش برئة واحدة ، فصدر الأمر إلى فاروق عن طريق دبابات (مايلز لامبسون) بتكليف النحاس بالوزارة ، وإلا فعليه أن يتنازل عن العرش فورا ، وجىء بالنحاس يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ على ظهور الدبابات الإنجليزية ، لا على أسنة الرماح المصرية ، وقامت حكومة النحاس

من جانبها بتنفيذ شروط معاهدة ١٩٣٦ نصا وروحا ، بل بسماحة بلغت حد البلاهة ، بل الخيانة ، فى سبيل إرضاء شهوة البقاء فى الحكم وكان الإنجليز — بحكم المعاهدة — يحتلون كل شبر فى أرضنا ، وكل صفحة من صحفنا ، وعقل كل وزير من وزرائنا ، يأكلون كل ما نزرع وكل ما نصنع ، ولا نجد الخبز والسكر ، ويدوسون أبناءنا ، ويتفضلون علينا بالتعويض الكافى ، الذى لم يصل فى يوم من الأيام إلى ثمن كاب .

كل هذا لا يهم ، وإنما الذى يهم هو أن نبذل كل مرتخص وغال فى سبيل الحليفة ، أملا فى التفضل علينا بالجلاء بعد الحرب ، ولن ينسى المصريون الذين عاصروا (معركة العلمين) كيف كان جنود الحليفة وضباطها فى معسكراتهم المضروبة فيما بين الاسكندرية ورشيد ، والذعر قد أحالهم إلى فئران ، فكان (جونى) أو (جورج) يخلع ساعته أو معطفه أو بندقيته يسلمها للغلام المصرى الذى أدرك بفطرته هوان جنود الحليفة ، فأخذ يرجمهم بالحجارة رجم الأبالسة . .

ومضت سنون وكتب الوفد بنفسه شهادة وفاته ، فات الوفد ، فعلا منذ ألغى معاهدة الشرف والاستقلال ، بعد خمسة عشر عاما من توقيعها ؛ ألغاها تحت طبقات الضغوط الشعبية المتراكمة ، فكانت ساعة إلغائها هى (ساعة الصفر) بالنسبة لفجر جديد من مفاخر هذا الشعب المجيد ، الذى خف للكفاح المقدس ، متحملا وحده أعباء تحرير البلاد من غاصبيها ، بغير حاجة إلى قيادة أو زعامة ، فقد صار كل ذلك من مخلفات الماضى ، ورواسب الرجعية البالية ، والطائفية المجلوبة ، واستأنف الشعب صفحة جديدة من صفحات كفاحه المظفر ، ولكن لحسابه الخاص

مستهينا بالعوائق ، متحديا للصواعق ، وخرج المارد من القمقم المسحور ، فبان الوفديون إلى جواره أقزاما ومسوخا ، ولم يعد المأجورون يصخبون ويهتفون « الوفد عقيدة الأمة » أو « جاهدوا حتى تكون كلمة الوفد هى العليا » .

— كل شىء على ما يرام —

هبّ الشعب عن بكرة أبيه .. يحمل السلاح .. ويخوض المعركة .. وكان النحاس يخطب ما بين القاهرة والاسكندرية .. ويقول فى المحطات التى يقف بها القطار ، والمحطات التى لا يقف بها القطار . . « لقد قالت الحكومة كلمتها ، فليقل الشعب كلمته » .

أما الشعب فقد قالها فعلا .. وارتفع صوته فأخرس كل صوت .. نعم قال الشعب كلمته قبل أن يقولها الرئيس الجليل .. الذى كان إذا سئل عن تدابير الحكومة بشأن الخطوات التالية . . لا يزيد على قوله « كل شىء على ما يرام » .

وما من قرية أو مدينة إلا وقد جاوز فيها الهتاف عنان السماء « نريد السلاح » وما من قرية أو مدينة إلا وقد تعاون أهلها على إنشاء مركز للتدريب على السلاح بها .

وتنتظم الهيئات والأفراد فى مؤتمرات لتنسيق الكفاح الوطنى ، وجمع التبرعات ، وشراء الأسلحة ، لا باسم أحزاب ولا زعماء ، ولكن باسم العملاق الأكبر : الشعب ، ويتطوع القائدان العجوزان . . . المجاهدان : الفريق عزيز المصرى ، واللواء محمد صالح حرب ، للإشراف على شئون المقاومة الشعبية وتنظيم حربه

العصابات بما لديهما من خبرات فتصدر تعليمات الحكومة تباعا ، سرا وجهرا ، بوقف كل شيء ، لحين صدور تعليمات أخرى .

وفى الوقت نفسه ، تتكون فرق الحرس الوطنى من شباب الوفد ، يضعون شارات على أذرعهم ، ويقفون عند مفارق الطرق ، ونقط المرور .. وقد أباحوا لأنفسهم حتى تفتيش السيارات ، بحجة منع وصول مواد التموين إلى الإنجليز فى منطقة القنال وكأن شباب الوفد . . من أصحاب (القمصان الزرق) . . قد أمروا بحل البوليس ليقوموا بمهامه .. وانقلبت المقاومة فى منطقتهم إلى قرصنة .

وكثيرا ما نهبوا بضائع المواطنين تحت ستار الاشتباه فى أمرها .. وتحول الكفاح بعد ذلك إلى منع كل سيارة من المرور ما دامت أرقامها مكتوبة بالإفرنجية . . وتحرشوا بالموظفين المدنيين من رعايا بريطانيا كالمدرسين والممتشين الإنجليز كما حدث فى طنطا ودمنهور .

أما المسئولون فقد كانت خطتهم الموضوعة فى التعجيل بالجلاء . . هى قطع مياه الشرب عن المعسكرات البريطانية . . وعدم توريد المواد الغذائية لهم . . حتى يموتوا عطشا وجوعا ، وليس أمعن فى التفاهة من هذا المنطق ، وأدهى من ذلك وأمر أن أقارب المسئولين فى حكومة الوفد كانوا يقومون بتهريب صفقات اللحم والبيض والبرتقال إلى الأعداء . على الرغم من توقف المتعهدين عن التوريد للمعسكرات . . حقا إنها لمأساة .. ولكن .. « كل شيء على ما يرام »

ــ شعب يريد الحياة ــ

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليـل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر

وشهد التاريخ ، لشعب مصر أنه أراد الحياة ، وسجل له التاريخ .. مظاهر هذه الإرادة الفولاذية ، التى تجلت فى المواقف الرائعة ، ومنها :

أولا : الحصول على السلاح بأى ثمن ، والتطوع فى كتائب التحرير عن إيمان ، وبذل أقصى الجهود فى خطف الأسلحة الثقيلة والخفيفة من الأعداء لمحاربتهم بها ، والتبرع بالأموال لتجهيز المتطوعين ، والتكفل بعائلاتهم ، أثناء المعركة .

ثانيا : التزام موقف التماسك فى الجبهة الداخلية ، وتناسى الخصومات والخلافات ووضعها على الرفوف مؤقتا إلى حين الفراغ من معركتنا مع العدو المشترك ، وبهذا تجنبت البلاد ويلات حرب أهلية ، كانت تصرفات حكومة الوفد كفيلة بإضرام نيرانها فى أى وقت ، لولا الحكمة والاتزان .

ثالثاً : استجابة آلاف العمال لنداء الفدائيين بترك أعمالهم فى معسكرات الإنجليز تضامنا مع الشعور الوطنى العام ، وبذلك تعطلت الحركة من شحن وتفريغ وتموين بواخرهم وسياراتهم وطائراتهم ، مما اضطر الإنجليز إلى جلب عمال من قبرص ومالطة واليونان .

رابعاً : حرص الصحافة ــ بالرغم من اختلاف مناحيها ــ على إبراز كفاح الشعب بصورة تحفز الهمم ، وتستحث العزائم ، فكانت الصور والمقالات والأخبار الصحيحة من العوامل الدافعة على تشجيع الفدائيين والمضى فى المعركة إلى نهايتها وإن طالت .

خامسا : تجاوب الغرف التجارية مع شعور الشعب ، وعدم استغلال الظروف لرفع أسعار السلع التموينية ، ومحاربة البضائع الأجنبية بيعا وشراء ، وفرض رقابة دقيقة على التجار والمشترين على السواء .

سادساً : الكف نهائيا عن المناورات والانقسامات حتى لا يستغل العدو فرصة التصدع الداخلي للنفاذ من هذه الثغرة إلى الشعب أفرادا أو جماعات مع التنديد الصارخ بكل من سولت له نفسه تيسير أى عمل عدوانى يقع على جهاد المتطوعين أو المدنيين .

ـــ حكومة متخاذلة ـــ

بهذه الوسائل تذرع الشعب ، لمواجهة الموقف ، الذى ترتب على مغامرة الحكومة الوفدية بإلغاء المعاهدة ، وكان مما يحمد لهذا الشعب الأصيل وقتذاك ، سكوته التام عن المساوئ والمخازى ـــ وما أكثرها ، فكان سكوته هذا أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة ، بينما الصدور تغلى كالمراجل ، ولو تركت وشأنها لاجتاح فيحها العرش بمن عليه ، والوزارة بمن فيها ، والغاصبين من الشعب حقوقه ، والماصين دماءه ، المتجرين بأقواته وأسلحته ، الواقفين حجر عثرة فى سبيل تقدمه وتحرره .
كان هذا السكوت الشعبي هو الورقة الرابحة فى أيدى « الضباط الأحرار » الذين حملوا أرواحهم على أكفهم ، وأدوا مهمتهم الباسلة موفقة مباركة ، للوطن والتاريخ .

أما مظاهر الخزى والعار ، التى تمثلت فى مواقف الحكومة الوفدية فنستطيع أن نوجزها فيما يلى :

١ ـــ حب الظهور أمام الجماهير ، على نحو يثير المشاعر ، اصرف

الأنظار عن مخازيها ، فيتحول السخط العام على الملك والحاشية ، وتلك دعاية حزبية رخيصة تهدف إلى استغلال شعور الشعب لمصلحتها فقط ، دون التفات إلى مصلحة الوطن الكبرى .

٢ — العمل الارتجالي في سياستها العامة ، فقد ألغت المعاهدة بدون اتخاذ أي احتياطات عسكرية من حيث وضع الخطط بالاتفاق مع المسئولين في الجيش من شأنها مواجهة الموقف بما يتطلبه من تدابير . . ولم تعمل الحكومة من جانبها على توفير الأسلحة مقدما ، أو إعداد الشعب للكفاح ، واكتفت بوضع الشعب أمام الأمر الواقع . . ولم تضع في حسابها أي تقدير لشتى الاحتمالات المترتبة على هذه المغامرة الهوجاء التي دفعتها إلى إلغاء المعاهدة ، وكان أكرم لها أن تستقيل بمجرد تعثر المفاوضات . . وفقد الأمل فيها . .

٣ — إصرار الحكومة على سلامة موقفها منذ وليت شئون الحكم ، ضاربة ، صفحا عن سهام النقد المصوبة إليها من مختلف الدوائر الشعبية والحزبية ، وإغفالها شأن الأواصر الوثيقة التي تربطها بالدول العربية . وقد اتصف موقف الوفديين من القصر . . بالميوعة ، تارة تمسح بالأعتاب . . وتارة شماتة لما أصاب الملك من فضائح أمه وأخواته .، والإيحاء بنشر كل هذا سترا لمخازيها هي . .

٤ — إهمال المصالح العليا الخاصة بالدفاع ، وعدم اتخاذ الحيطة في استلام صفقات الأسلحة المتعاقد عليها مع فرنسا ، فقد نقلت الأسلحة على ظهر باخرة فرنسية تعمدت توصيلها إلى إسرائيل والعودة إلى ميناء الإسكندرية فارغة مدعية أن السلطات الإسرائيلية استولت عليها - -

ولم تتخذ حكومة الوفد مع فرنسا أى إجراء . .

٥ — حرصها على عقد اتفاق مع انجلترا وبأى ثمن ، لضمان الس[illegible] فى ركابها إلى الأبد ، صرح بذلك النحاس للمفاوضين الإنجليز أثناء المفاوضات ، قائلا لهم إن الجلاء « إذا تم فإننا سنضع أيدينا فى أيديكم ونعمل معكم بقلوبنا وأرواحنا » فجاء الرد البريطانى لطمة خيبت آمال النحاس وحكومته وحزبه ، فقد أصرت بريطانيا على عدم الجلاء بدعوى عجز مصر فى الدفاع الانفرادى عن نفسها ، مما يوجب عليها الاشتراك فى « الدفاع المشترك » مع إنجلترا وفرنسا وتركيا وأمريكا . . دول المؤامرة . . فى صورة مظاهرة .

٦ — سكوت الحكومة عن المتعاملين سرا مع المعسكرات البريطانية لعلمها بأنهم أقارب الوزراء . . بينما المتعهدون والعمال قد استرخصوا تضحياتهم إزاء الشعور الوطنى النبيل الإجماعى . وقد أقام الملك — فى إبريل سنة ١٩٥٠ — مأدبة كبرى بأنشاص دعا إليها زهاء تسعين من كبار ضباط الإنجليز فى القنال . . ولم يحرك النحاس ساكنا . .

٧ — ضياع هيبة الحكومة أمام قوات الأمن والجيش . مما جعل القوات المسلحة بمعزل عن الحكم . . فقد أمر الملك بتعيين (حيدر) قائدا عاما للقوات المسلحة ، فتقاص إلى جواره ظل (مصطفى نصرت) وزير الحربية ، ولم يعد فى إمكانه حتى إعطاء الأمر للقوات المنوط بها واجب الدفاع عن الشعب وحماية مصالحه .

٨ — تهاون الحكومة — عقب إلغاء المعاهدة — فى فرض الرقابة الشديدة على مراسلات الأجانب المقيمين فى مصر ولا سيما المشتبه فى أمر

تعاملهم مع الإنجليز ، ولا سيما الذين ينتمون إلى دول الدفاع المشترك المتآمرة على مصر، وتشديد الحراسة عليهم وتتبع سلوكهم هم والصهيونيون والشيوعيون ونهازى الفرص من الهيئات والأحزاب والأفراد .

٩ — غفلة الحكومة عن الخطرين على أمر البلاد فى الداخل والخارج مما جعلهم يتمادون سرا فى إحراج موقف الحكومة . . تدفعهم أموال أجنبية وأغراض هدامة .. بغية الإساءة إلى سمعة البلاد فى المجال الدولى وشل حركة دولابها الإنتاجى ، فيحجم أصحاب رءوس الأموال عن توظيفها فى المشروعات العمرانية التى تعود على البلاد بالمنافع العامة . .

١٠ — اكتفاء الحكومة — على مرأى ومسمع من الشعب — بالسماح رسميا بتنظيم المظاهرات المتتابعة ، والجنائز الصامتة ، مما أطمع فيها مثيرى الشغب من أعداء البلاد والقاعدين للحكومة بالمرصاد . . وأدى إلى ظهور الحكومة بمظهر العجز عن الكفاح . وأدى أخيرا إلى مظاهرات ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ التى انتهت بحريق القاهرة .

وإذا كان لكل بداية نهاية . . فإن ختام إلغاء المعاهدة . . حرق القاهرة . . وكذلك انتهى تأميم القنال بضرب بور سعيد . .

ولكن . . بين كل بداية ونهاية . . طرائف ولطائف . . ولكل خاتمة عبرة وفكرة . . فلنعد بالذاكرة إلى بداية المأساة الأليمة (حريق القاهرة) . . ونتدرج منها إلى (ضرب بور سعيد) . . بور سعيد التى كانت لمصر حصنا حصينا . . وللقومية العربية درعا سابغة . . وكان النصر . . ثمرة من ثمار خواتيمها .. والعبرة بالخواتيم .

معـــركة القنـــال

— مسرحية شمشون —

أخيرا . . وأخيرا جدا . . اكتشف الوفديون أن الإنجليز أغبياء . .
فهل كان يظن الحلفاء الشرفاء أن النحاس كان يرمى من وراء إلغاء
المعاهدة إلى فصل الحصان فصلا نهائيا عن العربة ؟ ! ما هذا الغباء ؟ !

إنه أراد بكل إخلاص أن يستبدل قيدا أكبر وأحدث بقيد
أضيق وأعتق . . وما كان يقصد مطلقا قطع العلاقات مع بريطانيا . .
ألم يصرح أحد وزرائه يوما ما بأن العلاقة بيننا وبين بريطانيا يجب
أن تكون (زواجا كاثوليكيا) . . ؟ ! لهذا كان إلغاء المعاهدة خروجا
على القاعدة المضطردة . . وعملا أقل ما يوصف به أنه شاذ بالنسبة
للمنطق الوفدى . .

سلخ الوفديون فى الحكم الأخير عامين . . أحسنوا فيها اغتنام كل
دقيقة . . منذ أول دقيقة . . فعمدوا مبكرين إلى توزيع الوظائف . .
واستحلال المحسوبية والاستثناءات . . واستغلال الشركات . .
والاستيراد . . والاستشفاء فى حمامات أوروبا . . وتهريب المشتريات
والنفائس من الجمارك . . وتهريب الحشيش . . والتستر على المهربين . .
لأنهم أصهار . . .

بذلوا فى ذلك جهودا جبارة . . ولا شك . فلما ضمنوا المناصب

والموارد واطمأنوا إلى مصائرهم بعد الصفعات السابقة التي تلقوها صابرين.. مثلوا مسرحية شمشون الجبار «عليّ وعلى أعدائي يارب» .. وأسدل الستار على الشعار الخالد «ومن بعدي الطوفان»

حقا لقد سعى الوفد «بالطرق السلمية المشروعة» .. لإجراء مفاوضات مع الإنجليز بشأن الجلاء عن مصر . استمرت شهرين تقريبا .. ودارت فيها المباحثات في حلقة مفرغة .. لا يدري أحد أين طرفاها ..

وتلك المعاهدة التي وقعها النحاس في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ .. وأطلق عليها صفة «الشرف والاستقلال» .. حاول إسماعيل صدقي أن يزيل آثارها بمفاوضات عرفت بمفاوضات صدقي-بيفن سنة ١٩٤٦.. فباءت بالفشل .. فلما تولى النحاس الحكم .. كان من الطبيعي أن يبذل قصارى جهده في الحصول من - بين شدقي الأسد البريطاني - على شروط وامتيازات أحسن مما انتهت إليه معاهدته الأولى .. وبالتالي أحسن مما توقفت عنده معاهدة صدقي التي لم تر النور ..

ولكن الحظ لم يحالف النحاس هذه المرة .. فقد تغيرت الظروف، لا بالنسبة للوعي الوطني فحسب ، ولكن أيضا بالنسبة لتغير محور السياسة البريطانية ، بعد اتفاقها مع حليفاتها على تنفيذ «الدفاع المشترك..» وفرضه على حكومة مصر .. مصر الوفد .. تحت الضغط والتهديد ..

.. وسرعان ما وجد الوفد نفسه فى دوامة... وكان عليه أن ينقذ نفسه، وسمعته من الانهيار، ولو بحركة مسرحية لأن الحوادث التى أحاطت به، كانت أكبر منه، ولا قبل له بها، وهذا ما حدث .. فقد ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦، وهو مطمئن إلى أنها لعبة مكشوفة .. وأنه إذا أقيل هذه المرة، فليخرج من الحكم بزفة .. وليتخذ من هذه الإقالة مادة خصبة يطنطن بها طويلا، ويوسع نطاق الدعاية بأن خصوم الشعب فى الداخل لم يمكنوا الوفد من استخلاص حقوق البلاد، وحرموها من طبختها وهى ما تزال على النار، لم تنضج بعد، بينما الوفديون قد كانت سواعدهم من جمع الحطب، وانتفخت عيونهم، وأوداجهم من النفخ على النار، فإذا لم يتركهم الملك حتى يتم على أيديهم إنضاج الطعام المشتهى، فذلك ما كنا نبغى، وبيدى لا بيد عمرو.

وهنا يترك الوفد حكم البلاد غير آسف عليه .. فالتركة مثقلة بالديون، وليكن بعده مايكون .. ومن بعده الطوفان ..

— كتائب الفدائيين —

قلنا إن الوفد قد نجح فى تعزيز مركزه من أول لحظة ليتنعم بنهوباته إذا تخلى عن الحكم أو فرض عليه ذلك ... لهذا فإنه كان يتوقع أمر الملك بالإقالة أو الإعفاء .. ما بين غمضة عين وانتباهتها .. منذ ألغى المعاهدة .. كان يتلهف فى شوق ولهفة .. إلى الراحة بعد العناء .. بعد أن تم توزيع الأسلاب والغنائم بالتساوى النسبى بين الوزراء والنواب ..

والمحاسيب والأصهار .. لأنه حصرم .. تضرس منه الأسنان .. وصدق المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها حتى بشمن وما فى الكرم عنقود

وتلك هى الحقيقة المرة . . فقد ترك الوفد خزانة البلاد خاوية على عروشها . . بعد أن استنفد الاحتياطى من الميزانية . . وما فى الكرم عنقود . . وكاد الخريف أن ينقضى . . ولم يكن الوقت موسم البطيخ الصيفى ليجد الوفد ما يطفىء به تخمة بطنه . .

وانقضت الأيام تتلوها الأيام . . ـــ بعد إلغاء المعاهدة ـــ . . ولكن الحكومة مكتوفة الأيدى .. والشعب ينتظر الخطوات التالية .. بلا جدوى . . عندئذ طافت المظاهرات السلمية فى شوارع الإسماعيلية . وبور سعيد.. فتصدى لها الإنجليز . . وصوبوا مدافعهم على المواطنين العزل من كل سلاح . وأحيط بهم من كل جانب بالمصفحات والدبابات الثقيلة من طراز (شيرمان) و (سنتوريون) . والشعب لا سلاح معه .. ويومئذ استشهد اثنا عشر.. واحتلت القوات الغاشمة بور سعيد والإسماعيلية . وأرغم الدخلاء أبناء الوطن على الخضوع لأوامرهم وتفتيشهم بالقوة وسلب مافى جيوبهم . . وكان الرد من جانب الشعب عنيفا على غير ما كان يتوقعه الديوك الحمر :

هذه الفلاحة (أم صابر) ذات الجلباب الأسود . . والخلخال الفضى .. والعقد الغليظ من الخرز الأصفر .. تقف فى الصف الطويل ، وتمتد إليها يد الإنجليزى النجس ليفتشها .. فتضربه على يده قبل أن

تدنسها يده القذرة ..وبهذا أهانت شرف التاج البريطانى .. تلك الإهانة التى لا يغسلها إلا رصاصات تستقر فى جسد الفلاحة المصرية .. زوجة الفلاح المصرى . فتسقط على الأرض مضرجة بدمائها الزكية ، فداء لأمها الكبرى مصر ..

والفدائيون ..وما أدراك ما الفدائيون..يضرمون النيران فى مخازن الأعداء.. ويجعلون سياراتهم ودباباتهم وخيامهم ومعداتهم وبطارياتهم طعمة للنيران ..واستمرت هاتان الخالدتان .. تكافحان الهجوم الغاشم بكل ما أوتى أهلهما من قوة .. واشترك فى المقاومة الشعبية لأول مرة أطفال وغلمان ، ونساء وشيوخ ، فأحس العدو بالأرض تميد به ، وتغور من تحته .

ذاعت هذه الأنباء وشاعت ، وسرت الروح المعنوية فى النفوس مسرى النار فى الهشيم ، فسرعان ما انتظم فى كتائب التحرير كل متطوع جاد بدمه وماله ، ، دفاعا عن شرف بلاده ، أرض آبائه وأجداده .

واشتدت الوطأة على رءوس الإنجليز قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. قياما وأيقاظا وسكارى ، وعجلان ما اتخذت الامبراطورية العجوز ، تدابيرها الفعالة ،فحشدت ثمانين ألفا من جنود وضباط فى منطقة القنال . قبل أن تختلج عين فى مصر باليقظة من سبات عميق طويل ، ولكن الذى جد فى الأمر أنها عززت هذه الحشود بستة آلاف أقلتهم البواخر والطائرات من قبرص ... وطرابلس .. واغتصب القراصنة من القوة المصرية.. حراسة كوبرى (الفردان) .. وقتلوا بعض الضباط والجنود

وأسروا البعض الآخر ، وبذلك عزلوا مصر عن شبه جزيرة سينا .. وعن قواتنا المرابطة فى غزة .

واشتعلت الروح الوطنية .. وتدفق المتطوعون ، بالمئات والألوف وبأمثالهم من خلف الصفوف .. وبذل كل مواطن ما فى يده .. وأخذت كل مواطنة تخلع ما تتزين به من جواهر وحلى .. وتبرعت بها .. وخرجت الفلاحة المصرية تودع زوجها وابنها . . وأباها وأخاها . . إلى خطوط النار بالزغاريد والأناشيد .. والحلوى والورود . . على نحو لم أشهده ولم نسمع به من قبل .

وهل نسى التاريخ . . كيف كانت هذه الفلاحة تفقأ عين ابنها بماء الملوخية الساخنة . . أو تبتر سبابته اليمنى حتى يعفى من الجيش . . فلا يرى ولا يشد على الزناد . ؟ كانت الفلاحة تفعل ذلك أيام أن كان المصريون أغناما تساق إلى حروب فى المورة ، أو روسيا .. أو المكسيك أو الحجاز .. أو الحبشـــة .. أو السودان .. حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

أما اليوم . . فالحرب تدور رحاها ، بيد كل مصرى . . وجد أن المسافة بينه وبين هدفه . . قد اقتربت . . فليعمل بنفسه ولنفسه .

ومضى الشعب .. فى طريقه الذى رسمه لكفاحه . . غير عابىء بأوامر الحكومة . . التى تقضى بوقف التـبرعات . . ومنع تدريب المتطوعين ، بينما الإنجليز يحصدون الأرواح بمناجل غدرهم . . ولا يتلقون من الحكومة غير الاحتجاجات شديدة اللهجة .

والفدائيون مع هذا أيقاظ غير نيام .. دوخوا الإنجليز وعملائهم .

وأشاعوا الذعر والإرهاب ، ، فارتعدت منهم الفرائص ، ، وخارت منهم القوى.. وذهلت العقول .. وطارت الألباب .. فصدرت التعليمات بترحيل عائلات الإنجليز فورا من مصر . . ولم يذق العدو للنوم طعما ، ولم يجد للحياة معنى . . بسبب نشاط « الفرقة الخفيفة » . . التي أذهلت القراصنة ، ، بخفة اليد في خطف الأسلحة والملابس بل وأجساد الجنود والضباط ، ، فلا تجد لها مستقرا إلا في قاع ترعة الإسماعيلية . . أو في أحشاء الكلاب .

ويصرخ المحتلون ، ويعلو صراخهم ، ويجأرون بالشكوى إلى حكومة مصر ، لتتولى حمايتهم من إرهاب الفدائيين ، ووقف أعمالهم وهكذا : ضربني فبكى ، وسبقني فاشتكى .

— دماء وأشلاء —

اشتعلت رؤوس الإنجليز شيبا من هول الصواعق المرسلة عليهم من أوكار الفدائيين . . على سبيل الهدايا . . فكان جنود الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس يتسللون من الذعر . . أو يسلمون مدافعهم وقنابلهم ثمنا لخيانتهم . . أما قائدهم المسعور (أرسكين) فقد أفرغ سعاره في هدم منازل قرية (كفر عبده) .. فأصبحت وكأن لم تكن، وهام ألف نسمة من سكانها على وجوههم في قرى مديرية الشرقية .. يعانون برد شهر ديسمبر القارس . . ويقاسون مرارة الجوع والعرى والغلاء . .

هذا .. ودماء الأهلين وأشلاؤهم تتناثر في مدن المنطقة وقراها . .

خبايا الغدر والعدوان من (الحليفة الفاجرة) . . وأصبح شرف المقاومة موزعا بين السويس وبور سعيد والإسماعيلية وأبو صوير والتل الكبير وكفر عبده ..

ويتيه (أرسكين) و (اكسهام) فخرا ودلالا . . بما حققته سياسة (تشرشل) من نصر على أيديهما . . من قتل الأبرياء . ، ودك محافظتى بور سعيد والإسماعيلية .. ووقف إنتاج البترول لتعطيل القوة المحركة فى مصانع مصر . . وشل الحركة الاقتصادية فى المناطق الصناعية المتوقفة على البترول . .

وصارت منطقة القنال ميدان حرب طاحنة . . لم يتورع فيها الإنجليز عن أخس الخصال . . وأبشع النذالات .. من إحراق مبانى الحكومة . . والمستوصفات . . وهدم المنازل فى القرى والكفور .. كيلا يستتر وراءها الفدائيون فى حملاتهم الإرهابية على المعسكرات .. ونهب أقوات الفلاحين من الحقول ، والفتك بالأطفال الرضع . . والشيوخ الركع . . وسلب ركاب القطارات والسيارات فى طريقهم إلى أعمالهم .. وراح فى هذه المعمعة مئات المواطنين شهداء فى ساحة الشرف .. وكتب التاريخ فى سجل الخالدين : نبيل منصور .. ومحمد مصطفى الحداد .. وإبراهيم عبده خميس . . وعبد الحميد سليمان . . وأم صابر .. وسيدة البندارى . . وعمر شاهين . . وأحمد منيسى . . وعباس الأعصر . . وعبد الحميد عبد الله .. وغيرهم من جنود وضباط . .

وكان جنود البوليس وضباطه . . . ومن يشد أزرهم من بلوكات النظام يرفضون تهديدات الإنجليز وإنذاراتهم بإخلاء مخافرهم . .

وما أروع رد الضابط المصرى .. « مصطفى رفعت » على إنذار الإنجليز يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ بهدم دار محافظة الإسماعيلية على من فيها . . فيقول ضابطنا الهمام « لن يتسلم البريطانيون منا إلا جثثا هامدة » .

— باب الحرية . . . —

إن التاريخ لا ينسى أبد الدهر ما فعله الإنجليز بالفدائيين الصبحة الذين أسرهم الإنجليز . . وصلبوهم على جذوع الأشجار . . وأطلقوا عليهم الكلاب المسعورة — مثلهم — تنهش لحومهم . . ليحملوهم على الإرشاد عن مراكز نشاط الفدائيين . . فلما استعذبوا الموت فى سبيل الوطن .. وآثروا الشرف على حياة الذل والهوان .. أعدمهم الإنجليز رميا بالرصاص . .

ولن ينسى التاريخ أيضا ما فعله الإنجليز بمقابر الإسماعيلية . . التى نبشوها . . وبعثروا رفاتها . . ولم يواروها التراب . . هاتيك العظام النخرة . . التى زايلتها أرواحها . . حتى إذا نفخ فى الصور . . وبعثر ما فى القبور . . وحصل ما فى الصدور .. شكت إلى باعثها . . عدوان هؤلاء الغاشمين . . الذين لم يراعوا حرمة الموت . . وكانت حجتهم الواهية . . التفتيش والبحث عن ذخائر الفدائيين التى خبأوها هناك ...

ولن ينسى التاريخ أبدا . . ما فعله الإنجليز فى الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ . . ذلك اليوم الخالد . . الذى لم تكد تطلع شمسه .. حتى كانت فوهات المدافع والدبابات مصوبة إلى كل صدر . . تقصف الجماد والحيوان والنبات . . والإنسان . . بلا رحمة . . ويسقط من الموظفين خمسة وستون شهيدا . . بخلاف الجرحى . . وتأتى عربات

الإسعاف لنقل الجثث . وإسعاف ذوى الجراح . فيمنعها الغادرون .

أسلاك البرق تنقل الأنباء . والإذاعة مجللة بالسواد . فلا تسمع غناء أو لهواً أو طرباً - فهذا هو يوم حداد . لا تسمع غير القرآن . . والأنباء . التى تعصف بالألباب .. وتكاد القلوب لسماعها تنخلع من الأضالع . . ويذيعها المذيع . . فتتحجر الدموع فى المآقى . . ويعود كل مصرى بذاكرته إلى الوراء ليحصى عدد الشهداء منذ اندلعت أول شرارة للجهاد . . فلا يجد من عقله مسعفاً . . فيطوى الجوانح على اللوعة والجوى . . لولا بقية من إيمان لقول الحق تبارك اسمه « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم . . » وصدق الشاعر :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ــ مقر القيادة ــ

ولكى تستكمل الصورة عناصرها .. نتساءل : أين كان مقر القيادة الرسمية للمعركة ! .. ما معداتها وتدابيرها ؟ .. من هو القائد الذى تحمل مسئوليتهـــا ؟ .. وما مدى إلمامه بفن التكتيك ؟ . . وما هى بوادر النصر .. المنتظر ؟

والجواب الصريح على هذه الأسئلة ليس سوى ضحكة ساخرة ماكرة فقد كان مقر القيادة الرسمية للمعركة فى مكتب وزير الداخلية فؤاد سراج الدين .. حيث المدافىء الكهربائية عن يمين وشمال .. وآلات التكييف

من فوقه ومن تحته .. والسيجار الكبير لا يفارق شفتيه إلا فترة وجيزة يحتسى فيه قدحا من القهوة أو الشاى .. حتى إذا سئم المقام فى هذا المكان .. أسلم جسمه الضخم للمصعد الكهربائى ليسلمه بدوره إلى سيارته الخاصة .. فما يستقر بها حتى يستسلم للراحة .. ويمضى فى سبات عميق .. دقائق معدودات ينعم بعدها بالدفء الكامل والنعيم الشامل فى قصره المنيف .. بحى (جاردن سيتى) .. ومن هناك تلاحقه الاستفسارات .. وهل هو بحاجة إلى هيئة أركان حرب .. يتبادل معها الرأى والمشورة .. ؟ أليس هو الدينامو المولد لجميع تشكيلات الوفد .. ؟ ألم يهتف باسمه بعض المأجورين فى فتنة جمارك الإسكندرية سنة ١٩٤٧ قائداً أعلى للجيش ؟! ..

ليس فى الأمر إذن ما يدعو لاستشارة حيدر .. أو نصرت .. أو وحيد شوقى .. مدير خفر السواحل .. وابن أخت النحاس ..

بالتليفون .. نعم بالتليفون .. من بيته تارة .. ومن مكتبه تارة أخرى .. قاد المعركة .. الجنرال سراج الدين ..

بالتليفون .. كان يصدر أوامره .. لأن التليفون من « الطرق السلمية المشروعة » .. وإلى سراج الوفد .. يرجع الفضل فى اكتشاف هذا السلاح الحديث فى فن التكتيك ..

بالتليفون .. قاد سراج الدين المعركة .. التى دارت رحاها وحمى وطيسها فى القنال .. وكان مركز قيادته القاهرة .. وبين القاهرة والقنال .. أميال وأميال ..

بالتليفون .. يستصرخه أهل القنال .. وحامية الأمن بها ..

فيشكرم بإرسال ألف جندى من بلوكات نظام الأقاليم .. ليقفوا فى وجه ٨٦ ألف .. بالعتاد الكامل .

بالتليفون .. أصدر أوامره الصارمة الجازمة .. فكلما ضج الإنجليز بالشكوى . من نشاط المدائيين . وهرعوا إلى سراج الدين . . ليحميهم فى منطقة القنال .. بعث بجنود البلوكات هذه . لمعاونة بوليس مصرهناك على حمايه اللصوص. الغادرين. .الذين استولوا على باب الدار بالقوة .. وصرعوا أبنائى أمام عينى .. ثم يقال لى :رحمة باللصوص .. رحمة بالسفاحين .. يامظلوم .. يا مفجوع !

— خبرزانات . . سريعة الطاقات —

بلغ الحرص من سراج الدين .. على مبدأ «الطرق السلمية المشروعة» أنه لم يسمح لجنود البلوكات بحمل السلاح .. وقد سبق لحكومة الوفد سنة ١٩٤٤ أن أصدرت قرارا بتسليم كل مواطن ما معه من سلاح أيا كان نوعه ، إلى أقرب محل بوليس .. وإلا ..

هكذا أراد الإنجليز ... وهكذا فعل الوفديون ..

واليوم .. تدور المعارك الطاحنة .. فى القنال . . فيكون الزاد والعتاد .. جنود بلوكات النظام ،، يحملون أحدث أساليب الدفاع . . خبرزانات سريعة الطلقات .. اكتفاء بها وبما فى أيدي بوليس المنطقة من جبخانات ،، وبنادق من طراز (لى أنفليد) .

وأذعن الجنود .. على مضض . بل على أمل خطف بندقية كل جندى إنجليزي يصادفه .. يحتال فى الحصول عليها . . وهو نائم أو

سكران . . وما أكثر البنادق التى خطفها جنودنا من جنودهم . أولئك السكارى الذين لم نسمع منهم غير العويل والبكاء ، من أهوال الفدائيين

ويشكو (إكسهام) إلى (سراج الدين) شكوى قائد إلى قائد ، بأن المصريين خطفوا بنادق البريطانيين ، فلا يملك سراج الدين إلا أن يأمر فى الحال برد البنادق المخطوفة ، كعربون للصداقة الأنجلو وفدية .

وتنفد ذخيرة جنودنا ، كما تنزف دماء شهدائنا : ويتلقى سراج الدين طلبا إثر طلب ، لإرسال ذخيرة ، فيكون الرد خالصا : لديكم العصى والنبابيت ، وفى هذا الكفاية ، لصد هجمات غيلان (سيدة البحار) مجتمعة فى البر والبحر والجو على السواء ، يقول لهم : موتوا ، دفاعا عن سراج الدين وآل سراج الدين ، وإياكم أن تسلموا أو تستسلموا .

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

بوليس الإسماعيلية ، يرفض بكل إباء وشمم إخلاء دار المحافظة ، ويتحدى الإنذار البريطانى بهدمها وحرقها بما فيها على من فيها ، وتدكها المدافع دكًّا متواصلا وبلا هوادة ، ورجالنا صامدون صابرون لا يبالون بقلة ما معهم من رصاص ، ولا يعبأون بكثرة ما عند العدو ، عدة وعديداً . . .

ويسقط الواحد من رجالنا إلى جوار أخيه شهيداً أو جريحا ، وقد أبى التسليم والاستسلام ، والمحافظ يكاد يمزق التليفون وهو يستصرخ « جنرال القاهرة » فيكون الرد طبعا : موتوا ولا تستسلموا ، وتنتهى المكالمة ... ولا حياة لمن تنادى .

صحيفة السوابق

— سودى واحكمى يا بريطانيا —

مرة أخرى . . نقول للقارئ الواعى . . إن هـذه الصفحات . . لا تجتمع لتؤلف كتابا فى التاريخ . وإن كانت تعتمد فى تفاصيلها ودقائقها عليه . . فهى صفحات . . ترى إلى خلق « فكرة » . . تبيعت طويلا . . حتى تبلورت . . فلها على كل مواطن حق التعميق . . فى مجرى الدم من العروق . .

وتبين فيما ذكرنا . . أن الفدائيين وحدهم هم الذين كانوا وقود المعركة بالاشتراك مع جنود البوليس النظامى والاحتياطى . .

وتبين لكل ذى عينين وأذنين أن الوفديين لم يكونوا يتوقعون ذلك . . لأن الأطماع قد طمست على أبصارهم . . فسلبتهم نعمة بعد النظر . . وتقدير العواقب . . لذلك لم يحتاطوا المعركة . . ولم يفتحوا لها فى ميزانيتهم حسابا جاريا . . أما البرلمان . . نوابه وشيوخه . . فلم يتخلف عن ركب الحكومة . . تصفيق حاد . . وهتاف متواصل . .

وهناك فى لندن . . كان نشاط الفدائيين فى القنال . . هو الشغل الشاغل لدوائر (دوننج ستريت) . . فالأمهات والحلائل البريطانيات يسمعن بأنباء الصيد الذى يظفر به كل يوم فدائيو القنال . . فيجهشن بالبكاء . ويتظاهرن فى الشوارع والميادين وتحت شرفات الحكومة

ومجلس العموم . هاتفات . : أو حاملات لافتات « ردوا إلينا أبناءنا وأزواجنا » . . ولا ننسى أن أرواح الثكالى والأرامل لم تكن قد التأمت بعد . . منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها . .

ولكن دوائر لندن الرسمية . . العسكرية . . تمضى فيما تورطت فيه . . لهذا كان تصريح (روبرتسون) صدى للتحدى السافر . . ورد فعل مضارع النشاط الفدائيين . . .

لقد حرص الجنرال (روبرتسون) على أن تكون (فايد) المصرية . . مركز قيادته العامة للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط . . كما حرص على ألا تشرق شمس سنة ١٩٥٢ حتى يعقد مؤتمراً صحفيا . . وضع فيه النقط على الحروف . . وإن كان المصريون - بفطرتهم - يستطيعون قراءة الحروف من غير نقط . . قال (روبرتسون) فى هذا المؤتمر :

إن الحكومة البريطانية - كما أوضح وزير الخارجية مرارا - مصممة على المضى فى تنفيذ مقترحات الدول الأربع ، التى تأمل أن تشترك فيها مصر اشتراكا كاملا على قدم المساواه مع الدول الأخرى ، وإلى أن يتم مثل هذا الإجراء ، ستحتفظ القيادة العامة بمركزها فى منطقة القنال وتحافظ على حرية الملاحة فى قنال السويس : الممر البحرى الدولى ، لا لأى سبب يتصل بمصلحة خاصة تقوم على الأنانية ، بل مساهمة منا فى الدفاع عن العالم الحر ، وإنه لمن الخطأ الجسيم أن يتصور أى شخص أن الضغط والإرهاب بمالها من عواقب محتومة سيؤثران بأية حال فى تصميمنا ، وإذا لزم الأمر سنمضى فى خطتنا شهرا بعد شهر بل لمدة

أشهر عند الاقتضاء ، وسنواجه القوة بالقوة ، ولن نستخدم من قواتنا أكثر مما يتطلبه الحال ، ولدينا قوات كافية تحت إمرتنا ، وتؤيدنا دول أخرى . .

أقر الخصم وانقطع النزاع .. أقرت بريطانيا بنفسها على نفسها . . ودلت على نفسها حية البحر ، فها هي تعلن على لسان (روبرتسون) المتحدث الرسمي باسم القيادة العامة لعصابة القراصنة المتآمرين على الشرق الأوسط تعلن عن اتفاق تم فعلا بينها وبين دول أخرى تدور في فلكها ، والضغط على مصر لقبول الانضمام إلى حلف ظاهره « الدفاع المشترك » عما أسمته (العالم الحر) ، وحقيقة المراد منه شطر العالم إلى معسكرين : على رأس كل منهما فريق من الدول الكبرى ، تصبح سائر الدول المختلفة ذيولا لها ، وبمعنى أدق ، تصبح مخازن تموين ، وقواعد لشن الغارات والهجمات ، وبهذه الوسيلة تضمن بريطانيا الجائعة غذاء شهيا رخيصا لبطون رعاياها ، وأذنابها ، وجيوشها المرتزقة المستهلكة في إنتاج المدمرات المهلكات ، التي ستقضي عليها هي قبل استخدامها في إبادة غيرها من الشعوب المحبة للسلام . .

تريد الحية الرقطاء ، أن تمد يدها بالسلام إلى مصر ، بعد أن حملت الفأس الزرقاء ، وأهوت بها فوق مصر . .

وتريد الحية الرقطاء ، أن تخادع مصر ، وتلهيها عن عدوانها ، والدماء لم يجف سيولها من أرض المعركة . .

ولكن مصر لا تنسى ذلك المثل القديم ، كيف تحالفني وهذا أثر فأسك ؟ ! » .

ليس لمصر فى هذا المعترك ناقة ولا جمل ، ومع ذلك عليها لبريطانيا دين قديم ، وهو أن وزارة الخارجية البريطانية بالاشتراك مع وزارة المستعمرات والجهات العليا فى مصر ، قد نجحت فى المجيء بحكومة النحاس بعد طول الغياب ، وحكومة النحاس ، هى حكومة الشعب ، حكومة الجلاليب الزرقاء ، جيء بها ، وأنف فاروق فى التراب ، أليس ذلك الدين فى عنق مصر لبريطانيا ، جاءت اليوم تتقاضاها إياه .. !

وإذا كان تصريح (روبرتسون) قد نشر فى الصحف المصرية فى أول يناير سنة ١٩٥٢ ، يحمل فى خطوطه العريضة هذا الإصرار العنيد ، وذلك الإنذار بالوعيد ، فاذا كان موقف مصر منه حكومة وشعبا ؟ .

لقد أصر النحاس على عدم بحث أى اقتراح للدول الغربية إلا بعد الجلاء ، ونشرت الصحف هذا المعنى من مصدر غير مسئول ، ولنذهب فى التفاؤل إلى أبعد مدى ، ولنتساءل فى هدوء عن مغزى هذا الرد الشبيه بالرسمى . . فهل يدل مفهومه على شيء من اهتمام الوفديين بالأمور ؟ الواقع لا . . فهم ينظرون إلى سياسة بريطانيا نحو مصر .. باستهتار وتخاذل نظرة كلها ميوعة وانهيار .. وموقف لا جدية فيه كهذا . . لا بد أن يكون له ما وراءه . . لم لا . . وخطاب الإقالة على الأبواب . . !؟

وألق (روبرتسون) بالقفاز فى وجه حكومة النحاس .. بهذا التصريح الخطير فيما يتعلق بالمحافظة على حرية الملاحة فى قنال السويس الممر البحرى الدولى

من أين لك هذا الحق يا (روبرتسون) ؟ وما هو السند القانونى .. الذى بموجبه تحافظ على قناة مصر . . ومصر ذات سيادة واستقلال . . ولها

حكومة وجيش . . ولها حدود فى هذه الأرض . . لا فى المريخ ولا فى القمر . . ! ولكن هكذا كشر الاستعمار عن أنيابه . . وكشف عن مستور نواياه . . فأنكر وجود ما يسمى (الدولة المصرية) . . وأنكر أن هذه القناة مصرية . . لحما ودما . . رملا وماء . . مصرية طبعا . . وعقلا . . وقانونا . .

ومتى احتكمت بريطانيا إلى الطبع . . أو العقل . . أو القانون؟ . . إنكارها هذا كله . . إنما يشف عن ثوب رقيق مهلهل . . لا يكفى لحجب حقيقة المؤامرة التى تبيتها بريطانيا ضد مصر . . لاحتلالها . . واقتسامها مع دول المؤامرة . . يا للداهية ! ؟

وفيم الدهشة . . ! ما مصر بالنسبة لألمانيا وقد تمزقت بين أشداق إنجلترا وفرنسا وأمريكا . . وروسيا . . ؟ ! ما مصر بالنسبة للصين . . وبها ربع سكان العالم . . باتت إحدى الدول الكبرى . . وأصبحت وهى أجزاء وأشلاء . . ؟ !

وهذا هو الاتجاه الحديث للاستعمار . . لا تنفرد دولة استعمارية دون غيرها من الدول أعضاء العصابة فى استعمار دولة . . وإنما تقتسمها جميعا فيما بينها . . فهذه تأخذ قطاعا شرقيا . . وتلك قطاعا غربيا . . وأخرى شمالا . . ورابعة جنوبا . . وهكذا . . « استعمار اشتراكى تعاونى » يضمن الدوام والاستقرار . . للشركاء . . على صدر الفريسة . .

فهل كلف النحاس نفسه ، أو كلف وزير خارجيته أو سراج وقده الوهاج . . الجنرال المدلل والقائد العام لمعركة القنال . . هل كلف واحد من هؤلاء أو غيرهم نفسه عناء الرد على هذا الخطر الداهم ؟ ، أم تراهم

أجمعين قد اكتفوا بما صرح به زعيمهم من قبل فى المحطات الواقعة بين الإسكندرية والقاهرة ، والشعب يرددها فى تهكم وسخرية ، والغصة مل‌ء الحناجر ، ! ! نعم .

فى مصر « كل شيء على ما يرام . . . » وأعددنا لكل شيء عدته » .

وفى لندن ينشدون ويرددون فى أعياد الميلاد ، ومع هدايا (بابانويل) :

« سودى واحكمى يا بريطانيا »

— ٥ فبراير . . نعم —

الحق أن الوفد كان ذكيا كل الذكاء سنة ١٩٤٢ ، أما فى سنة ١٩٥٢ فقد خانه هذا الذكاء ، لأنه حزب ، والحزب كأى كائن حى ، ينمو ويترعرع ثم يذبل ، يبدأ شبابه قويا فتيا ، ثم يختم شيخوخته كهلا ضحلا ، وعشر سنوات ليست بالقليل فى حياة الأحزاب ، مع كر الغداة ومر العشى .

فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، جاءت حكومة النحاس على ظهر دبابات (ما يلز لامبسون) ، وماذا فى هذا ؟ ، أليست الغاية تبرر الواسطة ؟ ! كما يقول (مكيافللى) فى كتابه « الأمير » ؟ ! ، ثم أليس « الوفد عقيدة الأمة » كما كان ينادى عبد الفتاح الطويل ؟ ! ، إذن فلنضحك على الأذقان ، ولنعد إلى الأكاذيب والأباطيل ، وخداع الشعب من أصعب الأمور إلا على حزب الوفد ، وكل شعب ماكر إلا الشعب المصرى ، طيب القلب . .

فها هى ذى الصفحة الأولى من جريدة (المصرى) لسان حال الوفد المصرى . . والتى شعارها قول سعد زغلول « الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » . . طلعت هذه الصحيفة الغراء فى هذا الصباح الأغر . .

على قرائها .. بخطابين بالخط العريض جدا جدا .. فى إطارين كبيرين جدا جدا يلآن ،، الصفحة كلها أو أكثر ،، بحيث لم يعد ثمت مكان لنشر أى إعلان إلى جوارهما ، اللهم إلا (مانشيت) الجريدة الملون بالعلم المصرى الأخضر الحبيب إلى كل قلب ، الذى لوثه الوفد .. وصحف الوفد .. بالافك والضلال ..

كان على اليمين من الصفحة خطاب النحاس إلى مايلز لامبسون يذكره فيه بأن مصر دولة ذات سيادة واستقلال ، ويظهر أن مايلز لامبسون ، قد تذكر فى الحال فرد بخطاب لا يزيد فى كلماته عن خطاب النحاس واحتل مكانه إلى جانبه يؤكد فيه لصاحب المقام الرفيع اعترافه التام باستقلال مصر التام ، كما يؤكد له عدم التدخل فى شئونها الداخلية .. اقرأ معى أيها المواطن الحرّ هذين الخطابين المتبادلين بنصيهما واحكم بنفسك :

أولا : خطاب النحاس :

« إلى حضرة صاحب السعادة السير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر بالقاهرة .

صاحب السعادة :

لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة ، وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك بماله من الحقوق الدستورية ، وليكن مفهوما أن الأساس الذى قبلت عليه هذه المهمة هو أنه لا المعاهدة البريطانية المصريّة ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة

بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها .

وإنى أؤمل يا صاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد ما تضمن خطابى هذا من المعانى ، وبذلك تتوطد صلات المودة والاحترام المتبادلين وفقا لنصوص المعاهدة .

وتفضلوا ياصاحب السعادة بقبول فائق احترامى ؟

٥ فبراير سنة ١٩٤٢ — مصطفى النحاس

ثانيا . رد لامبسون :

« إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا
رئيس مجلس الوزراء ، القاهرة ،

يا صاحب المقام الرفيع :

لى الشرف أن أؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم ، وأن أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون بإخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة ، فى تنفيذ المعاهدة البريطانية من غير أى تدخل منها فى شئون مصر الداخلية ، ولا فى تأليف الحكومات أو تغييرها ،

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لرفعتكم فائق احترامى ؟

٥ فبراير سنة ١٩٤٢ . — مايلز لامبسون »

وهكذا اتفق المؤلفان الكبيران ، على إخراج هذه الدراما العنيفة لا لشىء إلا الاستهلاك المحلى ، وقد شهد هذه الدراما طبعا شعب مصر الطيب القلب على مسرح جريدة المصرى ، فأغرق فى الضحك ، وتغامز

قطبا الرحى فيما بينهما ، وأخرج كل منها للآخر لسانه بحيث لا يراه ..
وحتى لا تنسى ، يجب أن نعلم حقيقة باهرة هى أن الوفد نفسه هو الذى اقترح الرد البريطانى على السفارة البريطانية فى القاهرة وذهب النحاس بنفسه ومعه رجال الوفد إليها ، وخرج الخطابان مع أمر تشكيل الوزارة من « قصر الدوبارة » فى وقت واحد ، وهكذا يكون توقيت المسرحيات (١)

— برتقال بدمه —

بهذه العقلية التافهة استطاع النحاس أن يخفى « الجريمة » التى ارتكبها يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، ولم تزل آثار سحجات بيديه وفى وجهه كدليل صراعه مع الشعب الذى سفك دمه بالأمس ، وتركه فاقد النطق ، ووضع التاريخ يده « على جسم الجريمة » الشنعاء ، ولكن خطفها الغراب من يده وطار ..

ومرت الأيام ، واعتمد الوفديون على عامل له خطورته ، فى تاريخ مصر الحديث ، هو عامل النسيان .

لماذا إذن عجز الوفد — بعد عشر سنوات من حادث ٤ فبراير — عن ابتكار وسيلة جديدة مماثلة لمسرحية (الخطابين المتبادلين) ..؟!..
قلنا إنه شاخ وباخ ، واشتعل الرأس منه شيباً ، ثم إن الأحداث

---

(١) واضع صيغة الخطابين هو مكرم عبيد سكرتير الوفد . وقد اعترف هو بذلك مفاخرا ، وذكر أن نجيب الهلالى قد هنأه على هذا التوفيق ، وأن الوفد جميعا قد وافق على الفكرة . . (انظر جريدة « الكتلة » عمود ٧ صفحة ٣ فى ٢٥ يونية سنة ١٩٤٨ : مرافعة مكرم عبيد عن سعيد توفيق)

المستجدة ، كانت أكبر من الوفديين ، وسائر المنتمين إلى الأحزاب ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لهذا لم نسمع باحتجاج حزب ؛ أو هيئة ، أو نقابة .

أما الشعب ، الشعب العريق فى الكفاح ، منذ أقدم العصور ، ضد الهكسوس ، والمغول ، والفرس ،والترك ،والشراكسة ،والأرناؤوط والفرنسيين ، والإنجليز ، الشعب الذى دحر الإنجليز فى رشيد وخورشيد ، بالعصى والنبابيت ، هذا الشعب هو هو بعينه لم يتغير ، ولم يتحول فقد ظل يمطر اللصوص القراصنة ، المرتزقة المستأجرين ، فى منطقة القنال وابلا من النيران ، فباتوا وأصبحوا ، لا يسمع لهم إلا عواء الكلاب ، وولولة النساء ، لأن الفدائيين قد اكتظت بهم (كتائب التحرير) حتى صاروا عدد الرمل والحصى والتراب.

والإنجليز ، الذين اختفى عن أنظارهم منذ أسابيع . الباعة المصريون ينادون على الخضر والفاكهة والدجاج ، كادوا يموتون جوعا، لولا أن لمحوا من خلف الأسلاك الشائكة من بعيد ، غلاما يدفع أمامه عربة يد ، والبرتقال مكوم فوقها على نحو ظاهر .

وهو لا بد أن يكون برتقالا بدمه . وهو النوع الذى يحبه الإنجليز حبا جما . لامتلائه بلون الدم ، وما أشد الإنجليز حرصا على سفكه ، ويدفع الغلام عربة خلف الأسلاك ، فيتكالب عليها الجياع لشراء ما معه ، فيقصون الأسلاك ، ليدخل بالعربة .وسط خيامهم ،ويلتفون حوله ، ويساومون ، ويتضاحكون ويتغامزون ، والغلام يأبى ويرفض وهم يصرون ، فيترك لهم العربة بما فيها ، مغاضبا متباكيا ، ولا يكاد

بغيب دقائق حتى تكون الألغام التى دسها فى قاع العربة قد انفجرت فى عشرات الجنود ، وتركتهم دماء تجرى ، وأشلاء تتطاير .

كانت هذه هى كلمة مصر ، كلمة (البرتقال الذى بدمه) . . كلمة ذات معنى ومغزى ، كلمة تحفر مجراها العميق فى حياتنـــا الحاضرة والمستقبلة ، وهكذا يقول الشعب كلمته ، لا ، بل يعمل عمله ، فى كل لحظة من ليل أو نهار ، فى كل شبر ، وفى عنف وإصرار ، وجرأة وإقدام ، يمضى إلى غايته ، يستعذب الموت .. يسترخص الحياة ، يأبى الضيم والهوان ، ويعمل لحسابه الخاص ، لا لحساب حزب ، أو حكومة أو عرش ، ولا دفاعا عن حســب أو نسب ، ولـكن دفاعا عن شرف وعزة وحرية وكرامة ، وأما أوامر الحكومة ، فلم يعد لها فى القائمة حساب ، . . و . . .

إن عادت العقرب عدنا لها   وها هى النعل لها حاضرة

* * *

كان (روبرتسون) حريصا على عقد مؤتمره الصحفى فى (فايد) ، ليكون تصريحه هدية بريطانيا العظمى إلى العالم الحر ، فى مطلع العام الجديد ، وهكذا تكلمت بريطانيا ، وظنت وظل معها حلفاؤها وأذنابها أنها إذا تكلمت فيجب ألا يكون هناك تعقيب على ما تقول .

ولـكن غاب عن فطنة بريطانيا ، وحكومة الوفد ، وفاروق والحاشية ، مغزى دفين لخبر متواضع نشرته الصحف فى مكان متواضع وفى نفس اليوم الذى نشرت فيه تصريح (روبرتسون) .: هـذا الخبر الذى لم يحظ من بعض الصحف طبعا لا كلها ،إلا ببضعة أسطر. مفاده :

« أن جميع القوات المسلحة المصرية قد تم اشتراكها فى نادى الضباط .. كما تم تعديل قانون النادى »

هذا هو الخبر الذى مرت عليه أبصار القراء من الكرام ، أما العالمون ببواطن الأمور ، فما كان مثل هذا الخبر ، ولا أمثال أمثاله بالذى يعنيهم فى قليل ولا كثير ، وفات الجميع أن « الجنين » قد بدأ يتحرك فى بطن أمه .. وما كان لمثلى أو مثلك أيها القارىء الواعى ، أن يطلع على الغيب ، فالله وحده هو الذى يعلم ما فى الأرحام .

على أن حكومة الوفد قد أصبحت فى ورطة يرثى لها ، فقد عزلها الشعب عن طريقه ، ونحاها بالقوة المعنوية عن هدفه ، وكل شىء على ما يرام .

وما إن يرى جنرال (جورج أرسكين) ذلك حتى يردد خلاصة تصريح روبرتسون الذى أدلى به للصحفيين منذ ثمانية أيام ، مؤكدا أن نظر النحاس الإنجليز باقون فى القنال ، وعلى قلبها إلى طولون ..

وكان هذا ردا خالصا على تصريح النحاس الشبيه بالرسمى ، الذى طالعتنا به الصحف غداة نشرها لتصريح روبرتسون ، فقد أصر النحاس على عدم بحث أى اقتراح للدول الغربية إلا بعد الجلاء . . والجلاء فى فى نظر النحاس معناه إبدال معاهدة بمعاهدة ، وتنازلا منه وتكرما ، رضى بما لم يرض به صدقى سنة ١٩٤٦ ، فى مفاوضاته مع بيفن . .

ورأت روسيا عيانا بيانا كيف أن هذا الضغط المتوالى من جانب بريطانيا على مصر ، لإرغامها بالقوة المسلحة على قبول « الدفاع المشترك » إنما هو خنجر مسموم مسدد إلى صدر الاتحاد السوفيتى أولا وبالذات .

واتهمت الدول الغربية اتهاما صريحا واضحا باستعدادها لاحتلال الشرق الأوسط ، وهكذا تكلمت روسيا . .

— بريطانيا . . تتراجع —

عاش هذا الاتهام الروسى ، أقصد هذا الصاروخ الموجه أسبوعين كاملين فى الفضاء ، وإذا بيوم ٢٤ يناير سنة ١٩٥٢ فتوحى الحكومة إلى الصحف بنشر خبر يفيد أن مصر تطلب أسلحة من روسيا ، ويعقب ذلك حملة منظمة من الشائعات الوفدية أن القمح الوارد إلينا من روسيا والذى هو فى الطريق إلى الإسكندرية ، يحمل فى طياته أسلحة وذخائر ، لا عد لها ولا حصر . . تريد بذلك حكومة الوفد . . كسب الوقت . . وتخدير الشعور الوطنى . . الذى نفر منها ولم يعد بينها وبينه إلا هوة سحيقة . . وجفوة بالغة . . لا يمكن أن يتخطاها أى عملاق . .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن نشاط كتائب التحرير فى القنال . . كان له أكبر الفضل على العالم الحر . . فقد تسبب فى « تجميد » تلك المؤامرة الاستعمارية تحت ستار « الدفاع المشترك » . .

وإذا صرفنا النظر قليلا عن ذلك الطبل الأجوف الذى حمله على كرشه كل من روبرتسون وأرسكين وأكسهام . . والتهديد بالحديد والنار . . والقبض على عنق قناة السويس ، ، إلى غير ذلك . . فإننا نرى أن الغول الأكبر قد انكمش .. وأن الجبل قد تمخض فولد فأرا .. وكان للأسف ميتا .

وهـذا هو الذى حدث . . تراجعت بريطانيا . . وانسحبت

بانتظام . . وبنفس البرود المعروف عن ساستها المحنكين . . ولكن لماذا ؟ .. لأنها قامت بعملية جس النبض للسياسة الروسية قبل أن تقوم من موسكو وتنفجر فى نيويورك . . وإذا بالدول الضالعة فى المؤامرة البريطانية تسارع إلى إعلان براءتها من الاشتراك فى المؤامرة . . قبل أن تلصقها بها روسيا . . واتفقت هذه الدول فيما بينها على عدم فرض الأحلاف العسكرية على شعب أية دولة . . رغم أنفه . . وتعمدت حليفات بريطانيا تلك . . أن تعجل بهذه المناورة المفضوحة . . قبل أن ينفجر اللغم الموسكوفى . . فى هيئة الأمم المتحدة بخمسة أيام . . حتى لا تتعرض هذه الدول لشظايا اللغم الزمنى .. ولا يعدو دويه غير ما تخلفه أى قنبلة صوتية .

وعلى كل حال .. فإن بريطانيا مهما تحاور وتداور .. ومن ورائها شريكاتها بل أذنابها .. فإنها هى هى بريطانيا .. لا عهد لها ولا ميثاق .. بل تاريخ مفعم بالمخازى والآثام . . وسواء علينا ركبت رأسها . . أو أحنت ظهرها للعاصفة.. وسواء صممت على الاحتلال .. أو تراجعت عنه . . أمام الشعب الفولاذى . . وأمام الاتهام الروسى . . وأمام مظاهرات لندن .. وأمام الموجة الكاسحة .. ينبئ عنها مرصد السياسة الدولية . . فقد تكلمت روسيا . . وصدقناها . . وصدق الشاعر :

إذا قالت (حزام) فصدقوها • فإن القول ما قالت (حزام)

العرش .. فى خطر

— ويكا .. ويكا —

الجو مكهرب .. فى الأيام القليلة المتقاربة من منتصف ينـاير .. العواصف عاتية .. والغيوم متكاثفة .. والظلمات بعضها فوق بعض .. والرعود تزمجر على إثر بروق خاطفة .. تمزق طيـالس السموات .. والسحب متخمة بشحنات .. وليس هناك مانعة للصواعق ..

الجو مكهرب .. حقا .. لأن شحنات متبـاينة بدأ يحتك بعضهـا ببعض .. تصميم (أرسكين) على البقاء فى القنال بلاجلاء .. عزل المنطقة الدامية عن مصر .. وإعلان الأحكام العسكرية فيها .. الانهام الروسى .. عنف المعركة .. بجزرة التل الكبير .. نسف القطارات .. بالألغام .. شهداء الجامعة .. إطلاق الكلاب على الفدائيين وصلبهم على جذوع الأشجار .. وإعدامهم رميا بالرصاص .

فى هذا الجو المكهرب .. وعلى مسرح الحوادث .. ظهر فاروق .. بعد أن طال احتجابه من خلف الكواليس .. وكان ظهوره بمثابة « نقطة التحول » فى الكفاح ..

صحيح أن ظهوره لم يكن مفاجئا. وكان لابد أن يظهر.. ليقوم بدوره هو الآخر.. فى مسرحية خيوطها بأيدى المقادير.. وقد سحبته الأحداث من رجله رويدا رويدا ، إلى حيث لا يدرى ومن حيث لا يدرى، ولكنه سعى إلى حتفه بظلفه .. غير مدرك ما للبداية من نهاية .. وما للمقدمات

من نتائج . . وما الرواية . . ـ أى رواية ـ من ستار فى الختام . .

كان بدء ظهور فاروق . . فى الأسبوع الأخير من ديسمبر سنة ١٩٥١ .. عندما صدرت أوامره السامية بتعيين (حافظ عفيفى) رئيسا للديوان الملكى . . وشمول (إلياس أندراوس) بلفتة ملكية نقلته إلى المنصب الكبير الذى أعفى منه حافظ عفيفى فى بنك مصر . . وتعيين (عبد الفتاح عمرو) سفيرنا المسحوب من لندن مستشارا للديوان الملكى ـ هذا ما حدث . .

هذه التعيينات .. أى حركة التنقلات هذه .. ما شأنها والمعركة ؟.. ماذا تفيد القضية ؟ . . وكيف . . وهل . . ولماذا .. إلى آخر المعروف من ألفاظ التساؤل .. وكلها دارت على كل لسان .. وارتسمت علامات الاستفهام والتعجب . . على كل وجه . .

ولنترك هذه الحملة الاستفهامية الاستغرابية . . تمر إلى غايتها . . ولنتخير سؤالا أو استغرابا واحدا لا غير . . وهو :

هل سيتوجه النحاس ـ كما فعل سنة ١٩٣٧ ـ فى هيل وهيلمان . . ليسجل احتجاجه على تصرف القصر فيما يتعلق بتعيين على ماهر رئيسا للديوان بدون أخذ رأى الحكومة . ؟ وبمعنى آخر . . هل سيقول النحاس للصحفيين هذه المرة كما خرج فى المرة الأولى من القصر يخفى حنين ـ قولته المشهورة « نحن مبسوطون » ؟ ! . . إن شيئا من هذا لم ولن يحدث فقد كتم الوفد الخنجر الملكى فى صدره . . وعاد يلعق جراحه . . خوفا من شماتة الأعداء . . وانحشر فى مأزق لا يحسد عليه . . ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه . .

وازداد الموقف توترا . . وصار أعقد من ذنب الضب . . فكان لا بد من عامل مستجد . . من شأنه تحويل هذا الفيضان الجماهيرى الهادر . . وصرفه إلى وجهة أخرى . . وإلا اكتسح كل ما يعترض هديره وزئيره . .

وقديما قال (لورد كرومر) « المصريون قوم يجمعهم زامر وتفرقهم عصا » . . وتذكر الأذكياء هذه الحكمة الغالية .. وأرادوا استغلالها فى هذا الظرف . . بصرف النظر عن فارق التطور . .

فمن هو ذلك الذكى الذى يستطيع تعليق الجرس فى عنق الشعب الكبير ؟ ! أما الفيران فهى هى الفيران .. لهذا وقع الاختيار على أكبر رأس فى البلاد . . فاروق بالذات . . وكان اختيارا موفقا لا شك . . فياله من صيد . . ! إنه حقا (كبش الفداء) . .

أما المخرج .. فإنه للأسف الشديد - لم يتخير الوقت الملائم .. لعرض هذه المسرحية . . لأن المقادير لا بد أن يكون لها أولا كل اعتبار . . ودعك من قولهم :

دع المقادير تجرى فى أعنتها	ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها	يغير الله من حال إلى حال

وباتت الألسنة وأصبحت . . تلوك سيرة فاروق . . فى إطار محيط بمخازيه . . وفى سلسلة من الماضى والحاضر . . سلوكه الشخصى . . مغامراته النسائية . . مقامراته . . مجونه وخلاعته . . سهراته فى الأوبرج . رحلاته إلى دوفيل . . اختطافه الحرائر من خدورهن . .

في حراسة إبراهيم عطا الله . . طلاق فريدة الملكة . . تلويث القصر بالدعارة والفجور . . فسخه خطوبة ناريمان صادق من زكى هاشم . . وزواجه منها . . استهتار نازلى الملكة الأم فى الخارج . . زواج أخته المسلمة من رياض غالى المسيحى . اغتياله محمد على أيوب . . ليخلو له الجو . . السطو على الأعراض فى جنح الظلام . ادعاؤه النسب الشريف للاستيلاء على الأوقاف . . نزوعه إلى الاستبداد والعبث بالدستور والحكومات .

كل هذا وما إليه . . أسخط الشعب عليه . . فدوت الهتافات ضده . . فى مظاهرات الشوارع . . وفى الحفلات السينمائية . . وفى رحاب الجامعات . . وأفناء المدارس . . واستنكفت الصحف من نشر ماسجلته الأسماع يومذاك . . وسارت به الركبان . . « ويكا ويكا . . روح هات أملك من أمريكا » . « إلى قوله : يا ابن الخولة » . . « من لا يملك أمه . لا يحكم أمة » . . « خرجت الطهارة . من بيت الدعارة » . . « يسقط عفيفى . . واللى حافظ عفيفى » .

وبداهة . . هذه الهتافات . أعدها للمظاهرات أخصائيون فى التشكيلات الوفدية . وتبادل الوفديون فيما بينهم أسمى التهانى ؛ فإن العرش قد تصدعت قوائمه » ، وامتلأت جدران الشوارع والمنازل بالخط العريض « نصر من الله وفتح قريب » ،

فقد حان الوقت لخلع فاروق من العرش ، والمناداة بمصطفى النحاس ملكا على مصر ، ، أو رئيس جمهورية على الأقل ، وقلب نظام الحكم

بما يحقق الإنجليز جميع ما يطلبون ، ولم لا يطمع النحاس فى العرش ؟!
ألم يقلها الصعيدى محمد محمود « أنا ابن من عرض عليه العرش فأبى » ؟!
ولم يكن الستار قد أسدل على فصل الختام ، لهذا ظل الممثلون المكلفون بالفصل الأخير ، من خلف الكواليس .

— أفراح القصر —

وفوجىء الشعب . .

فوجىء الشعب ، الذى كان يتدفق كالسيول الجارفة إلى معركة القنال، بدمه وماله ، بهظماً إلى حياض الموت ، استشهاداً فى سبيل الله والوطن،

فوجىء الشعب ، المتين - على ما به من جراحات وأحزان - لا على الشهداء الأبرار ، الذين فارقوا دنيا الناس إلى جنة الخلد ، مع النبيين والصديقين والشهداء - ولكن على اتساع رقعة الحرب ، على القلة الآمنة المؤمنة ، على انتهاك الإنجليز الأوغاد حرماتنا ومقدساتنا ،

فوجىء الشعب ، بهذا النبأ ، الذى زعموا أنه هناء محا ذاك العزاء .

فوجىء الشعب ، بمولد « الأمير أحمد فؤاد » ، نجل فاروق من ناريمان ، طالعتنا به الصحف فى صباح ١٧ يناير ١٩٥٢ ، هذا المولود الذى جعله الله قرة العين ، وبهجة القلب ، لفاروق ، وسليل الدوحة العلوية القولية .

وكان إعلان هذا النبأ بمثابة سن الدبوس الذى فجر كرة المطاط المنفوخة ، فأخرج ما بها من هواء مضغوط .

وفاضت أنهر الصحف بالتهانى . . والأمانى . . ودبجت الأقلام عقود المديح . . وبعد أن كانت أنباء المعركة تحتل الصفحات الأولى فى الصحف اليومية . . إذا بها تتقهقر بانتظام إلى الصفحة السابعة . . تمهيدا لإلغائها نهائيا . . وتخفيفا من حدة التوتر . الذى يمزق الأعصاب . .

وفى اليوم التالى . تجود المكارم الملكية . . بثلاثين ألفا من الجنيهات . . لأسر الشهداء . . علهم ينسون بها أحزانهم . . ويضمدون بها جراحهم . . بمناسبة أفراح القصر .. وعلى النحو المعروف .. أدرك الشعب أن هذا المبلغ ممنوع من الصرف .

ومرة أخرى نقول : إن المخرج لم يحالفه التوفيق . . لأنه لم يحسن اختيار الوقت المناسب . . فإن إعلان هذا النبأ . . أثار فى العقول الباطنة . . حفائظ الثكالى والأرامل . . ومواجد الجرحى والأسرى . وأوجاع اليتامى والمساكين . .

ومع ذلك .. أقيمت الموائد الملكية بالقصر .. وفى أنحاء البلاد . . ابتهاجا بمولد أحمد فؤاد . واستمرت الولائم من ١٩ يناير حتى بلغت أقصى البهجة ، ونهاية الأرب .. يوم ٢٦ يناير . يوم حريق القاهرة . .

فى هذا الأسبوع ، أسبوع الموائد والولائم ، تعطلت المدارس والمعاهد والجامعات ، وخرج الطلبة والطالبات ، هاتفين بالألفاظ النابية ، المعادية ، وهى وإن تورعت الصحف عن ذكرها . . فقد نوهت بها ، وصبت المظاهرات جامات سخطها على فاروق ،

وناريمان ، والنحاس ، وسراج الدين ، والانجليز طبعا .

هذا ومعارك القتال تعنف وتعنف ساعة بعد ساعة ، فالإنجليز يربطون بالمظلات على الإسماعيلية ويحتلونها بالدبابات والمدافع الرشاشة ، ويشردون أهلها ، بينما كتائب أحمد عبد العزيز ومحمد فريد وخالد بن الوليد . تنسف المخازن.. مخازن الذخيرة الحية فى معسكرات أبى سلطان ، تنسفها بلا هوادة وتشعل الحرائق فيها هنا وهناك ، فلا تدرى مطافىء الإنجليز بأيها تبدأ ومن أيها تنتهى : وطارت ألبابهم من العجب العجاب فمن أين للفدائيين هذه الذخائر وتلك المتفجرات ؟ وأين أسلاكها وفتائلها ؟ أين أولها وأين آخرها ؟ .

صمم الإنجليز على الوصول إلى جواب يشفى غليلهم وينقع لهيبهم ، فبحثوا عن (خنافس) و (سلاطين) من الطراز القديم طراز سنة ١٨٨٢ فوجدوا محمود صبرى كنج كما وجد أسلافهم عبد الله خنفس منذ سبعين سنة ، هذا دلهم على معسكر عرابى فى (التل الكبير) وذاك دلهم على مقابر (الإسماعيلية) فنبشوها واستخرجوا رفاتها ، ورجعوا من معركة الموت بصناديق ملأى بالخيرات لم يأتمن عليها الفدائيون حكومة الأحياء ، أودعوها دولة الأموات .

— دبابات تواليت —

فى هذا الأسبوع.. فى هذه الظروف .فى هذه المجازر تشهد القاهرة عرضا تاريخيا لوحدات من البوليس والجيش بالملابس والأزياء التى تعيد إلى

ذاكرة فاروق أمجاد آبائه وأجداده القراصنة الفراعنة الذين ورث عنهم هذا « الجيش » كابرا عن كابر ، الذين كانوا فى (قوله) شذاذ آفاق وقطاع طرق ورؤساء عصابات ، وبالأرناؤوط والدلاة ، وبالرشاوى الدسائس ، والحرائق والمذابح ، وصلوا إلى (القلعة) .

تم ذلك فى غفلة الزمن وعلى عين الاستعمار ، وتلك حقائق.. ولدينا الوثائق. وليس هذا مجالها .

والدبابات أخذت زخرفها وازينت بالأنوار الملونة ، فكانت تبهج الخاطر وتسر الناظر ، ولأول مرة فى العالم كله تظهر الدبابات بالتواليت ، أما كان جديرا بهم أن يحموا بها ظهور رجال البوليس وبلوكات النظام فى الاسماعيلية وبورسعيد والسويس ، بدلا من الخيرزانات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ! ؟ وإن كانت الأرواح قد انخفضت أسعارها ـ فى خضم الغلاء ـ ألم يكن جديرا بهم أن يصدوا بهذه الدبابات جحافل الغدر فى اكتساحها دور الحكومة ولا سيما المحافظتين المنكوبتين فى المدينتين الخالدتين ؟ !

على كل حال خرجت الجماهير للفرجة على هـــذه الكرنفالات الساخرة ، فعادت بآهات كتمتها فى أعماق الصدور.. والشفاه لا تنبس .

— فاروق . . يبكى —

لم يشبع سعار أرسكين . . على الرغم من الضربات التى استمر يكيلها لهذا الشعب الأعزل . . المنافح عن شرفه . .

لم يشبع سعار أرسكين . . من إراقة الدماء . . وحرق المساكن . .

ونهب المزارع . . وخطف البرتقال . . وانتهاك حرمات المـــوتى في أجداثهم . .

ومع هذا الفتك . . وتلك الإبادة . . عمدت بريطانيا إلى أحد عملائها في الشرق الأوسط . . هو السيد نوري السعيد . . وكلفته بأداء دور (المحلل) . . أي القيام بدور الوساطة بين إنجلترا ومصر . . كان ذلك قبل حرق القاهرة بيومين . . وفي اليوم التالي . . أي قبل هذا الحادث المشئوم بيوم واحد . . كشفت بريطانيا عن رغبتها صراحة في مفاوضة مصر على شرط أن تمنع الفدائيين من الاستمرار في أعمالهم الإرهابية .

وفي هذا اليوم . بلغ الملك أقصى درجة في الانهيار العصبي . وشعر بالأرض تغور بعرشه وتبتلعه . . وأحس بالأعاصير العاصفة توشك أن تطيح بالتاج من فوق رأسه . .

وليس أدل على ذلك من موقفه الذليل المتخاذل . . أمام الضباط في الحفل المقام لهم يومذاك . . والدموع تنحدر من خلف منظاره الأسود . . ويقول لهم . . وهو يجهش بالبكاء « أهدى إلى الجيش أعز شيء عندي وهو ابني » . . . الآن وقد عصيت قبل ؟ !

كان هذا النطق الملكي السامي ، بمثابة النهاية الأليمة ، والدراما التي ختمت أفراح القصر ، في ذلك اليوم تقدمت إحدى عشرة سفينة حربية من أكبر قطع الأسطول الانجليزي ، تحمل الزاد والعتاد من مالطة إلى مصر . . وتحتوي على لعب الأطفال . . وعلب الحلوى . . التي ستهبط على الشعب بالمظلات . . فرحا بخلع فاروق . . وبتولية النحاس ملكا.

وتتأزم الأمور . . بالطبع . . وتعلن الإذاعة نبأ استشهاد ثمانية وستين من رجال البوليس فى بجزرة الإسماعيلية ذودا عن دار المحافظة . نفدت ذخيرتهم . . وطلبوا المزيد . . فأبى سراج الدين . . ورفع زملاؤهم راية التسليم . . راضين بما قسم الله لهم . . آسفين على أن لم يلحقوا بالشهداء فى عليين . .

وترتفع حرارة الخطر . . وتعلن الحكومة حالة الطوارىء فى القاهرة . : مع تشديد الحراسة ـ الشفهية ـ على المرافق ، ودور السينما ، والملاهى ، والمقاهى ، والحانات . وتلغى الحفلات الساهرة ، ولا سيما حفلة سباق الخيل بمصر الجديدة . .

حدادا على أرواح الشهداء ؟ ! ؟ !

كلا . . بل احتفالا بحرق القاهرة . .

العاصمة تحـــترق

ـ رأس الجسر ـ

كان يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ رأس الجسر .. فى تكتيك الجنرال أرسكين . . وهو الأمل الذى طالما داعب خياله . . لتعود إنجلترا من جديد لاحتلال مصر . . إحياء لذكرى سنة ١٨٨٢ . .

لهذا أصدر أمره منذ أسبوع سرا إلى فرقة من قواته تتكون من مائة جندى لحراسة السفارة البريطانية بالقاهرة ، وأمر أيضا كبار الإنجليز بمغادرة العاصمة .. كما نصح لمحافظ بنك باركليز بنقل الودائع إلى سراديب تحت الأرض حتى لا تمتد إليها ألسنة اللهيب . . ولكن لماذا ؟

أراد أرسكين خلق زوبعة فى مصر . . من شأنها أن تسبب خلخلة فى الأمن الداخلى . . وكان أرسكين يعمل ليل نهار . . سرا وعلانية لتحقيق هذا الهدف ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، وسلك كل مسلك يؤدى إلى تلك الغاية . . بغير تردد . .

وبدأ يسدد ضربات قاتلة لا تعرف شفقة أو رحمة .. فشدد الوطأة على منطقة القنال . فكانت المجازر متتابعة فى التل الكبير والإسماعيلية . عمل كهذا يستلزم حتما من حكومة مصرية ، مهما بلغت الحضيض فى الانهيار أن ترسل بمزيد من قواتها لحفظ الأمن بقدر المستطاع . .

عندئذ يخف الضغط على العاصمة من حراسها .. وتصبح عارية

خالية . حتى إذا قامت مظاهرة . . أو حركة . . ـ وقد بات ذلك وشيك الوقوع بين لحظة وأخرى ـ اضطرب حبل الأمن . . واختل التوازن فى الجبهة الداخلية . . فتعم الفوضى أرجاء البلاد ، وفى هذه الأثناء . . تبرز عوامل الحقد، وينزل الذهب الرنان إلى جيوب الخنافس والسلاطين، وتعجز قوات الأمن ـ بعد اختصارها ـ عن صد غوائل الفوضى وهجمات المأجورين على تعكير الصفو وتكدير السلام . .

وهنا تخرج الحية الرقطاء من جحرها، وتتذرع بهذا التخلخل . . لتبرير احتلال البلاد ، بحجة رعاية مصالحها ، وصيانة ممتلكاتها ، وأرواح رعاياها ، وحماية الأقليات بها ، مع تشويش الخواطر ضد مصر ، والإساءة إلى سمعتها فى المجال الدولى، وإظهارها بمظهر العجز عن حفظ النظام ؛ بعد أن أفلت منها الزمام .

ــ بلوكات النظام ــ

أخذت ستائر الظلام ، بعد غروب يوم ٢٥ يناير تنسدل رويدا رويدا ، على مجازر القنال . فقد بلغ موكب الشهداء فى خلال الأربعين يوما الماضية أربعمائة أو يزيدون عشرة ، حصدت أرواحهم مناجل المستعمر .

وكان الليل أخفى للويل ، البرد قارس ، والعواصف هوجاء ، واختفى الوجوم فى ثنايا الظلام الحالك ، وأوى كل مواطن إلى فراشه ، وفى صدره مرجل يغلى . ونار تشتعل ، والتصدع يومئذ ، أبرز ظاهرة مميزة لحالة الدوائر العليمة ، الحكومة ، القصر ، لندن ، فايد . . حتى فى أفراد

الأسرة الواحدة ، وفى الأحزاب السياسية .

وهذه الأحزاب بالذات ، لم تكن تملك غير الانتحاب على الشهداء ، وكل حزب يسابق الأحزاب الأخرى ، فى كسب شرف انتماء أى شهيد إلى حظيرته ، ولم يكلف أحد من الزعماء نفسه عناء الذهاب إلى أسر الشهداء ، ومواساة أهليهم ، ومد يد العون إلى المحتاجين منهم بعد أن بذلوا دماءهم الزكية فى سبيل كل من بات حيا يرزق .. ومنهم الزعماء .

حقا كان التصدع أبرز ظاهرة أعقبت هذه المآسى الأليمة ، وكانت ليلة ليلاء .

ولم تكد الساعة تدق السادسة من صباح يوم ٢٦ يناير حتى بدأ ناقوس الخطر يجلجل ويدق ، منذراً بشر مستطير ، فقد تجمهر زهاء ثلثمائة جندى من بلوكات النظام فى ثكناتهم بالعباسية ، وحملوا أسلحتهم وانطلقت حناجرهم فى آن واحد بهتاف واحد « أين السلاح نريد أن نذهب إلى القنال » ، وسرت الحماسة فى أوصال الجنود والضباط على السواء ، وسرعان ما وجدوا على رأسهم الضابط عبد الهادى نجم الدين فارتجت الجدران ارتجاجا ، وإذا بالسيل الجارف يدفعه إلى الزحف مع الزاحفين إلى . . ؟ !

— خط السير —

خرج جنود بلوكات النظام من الثكنات ، ضباطهم فى المقدمة على غير اتفاق جنائى أو عدوانى ، وإنما هى حوادث الأمس الدابر ، شحنت

نفوسهم شحنا قويا ، فلم يجدوا عن طريقهم منصرفا . وبلغوا الأزهر ولم ير المواطنون بدأ من الانضمام إليهم ، وعلت الهتافات ضد الملك والحكومة والإنجليز .

ودلفت هذه الجحافل بما عبأت من طلبة الأزهر نحو ميدان العتبة الخضراء ومنها إلى ميدان الإسماعيلية فى طريقها إلى جامعة القاهرة ، ملأت رحابها فى الساعة التاسعة ، وتبودلت الخطب تقدح بالشرر ، وماجت بها الشوارع فى زحفها إلى ميدان عابدين .

ذلك الميدان هو الذى حشد فيه عرابى جيش مصر وشعب مصر ، وإذا (بتوفيق) وأعوانه من قناصل الدول يحنون الهامات سنة ١٨٨١م إجلالا وإكبارا ، ويخفضون الجناح رضوخا لمطالب مصر شعبا وجيشا .

وكانت تكون وقفة ما أروعها سنة ١٩٥٢ فى نفس الميدان لو كان لمصر يومئذ زعيم ، ولكن الزعامة كانت قد أفلست ، ولم يعد لها رصيد شعبي يسندها أو غطاء فكرى يدعمها ، ومن أجل هذا خلا ميدان عابدين من زعيم بعد سبعين سنة من وقفة أحمد عرابى فى طليعة الثوار .

وامتدت أطراف المظاهرة ، واتسعت ميمنتها وميسرتها ، واستطالت مقدمتها ومؤخرتها ، وما يزال القلب منها - على الرغم من هذا الحجم المتضاعف - ينبض قويا ويخفق طويلا ، فلما غادرت هذه المظاهرة - مزمجرة مدمدمة - ميدان عابدين انضم إليها رجال مخفر عابدين ، وكادت الشوارع والميادين تنفجر بكثافة الخلائق حتى استقرت فى دار رياسة مجلس الوزراء عند منتصف النهار ، وعلا الهتاف وخرج وزير

يخطب فأخرست لسانه زمجرة الأسود الغاضبة المهتاجة ، وجيء له بمكبر الصوت ليتكلم فتركوه يعوى ، وإذا زمجرت الأسود فليسكت ما دونها ، وعاد إلى مكتبه يبلع ريقه ويجفف عرقه ؛ ومضت المظاهرة فى زحفها إلى ميدان الأوبرا ، فاختلط الحابل بالنابل ، ومن ثمت انقلبت إلى شيء آخر لم يكن فى الحسبان .

دقت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، فاشتعل أول فتيل فى حريق القاهرة وسرت النيران واتصلت الحرائق ولم تخمد أوارها إلا فى الحادية عشرة ليلا بعد أن دمرت ميادين وشوارع ومحلات وملاهى ومقاهى ومتاجر وحانات بلغت السبعمائة أو تزيد ، واحترق زهاء ثلاثين شخصا ما بين مواطن وأجنبي وأصيب بحروق أكثر من سبعمائة ، نقلت عربات الإسعاف منهم النزر اليسير ، أما الكثرة الغالبة فقد تكفلت بمداواة حروقها وتضميد جروحها خشية الوقوع فى حيص بيص .

— اللاعبون بالنار —

القاهرة تموج بالمظاهرات من النوع الثقيل منذ السادسة صباحا ، وتأخذ فى الضخامة والجسامة شارعا بعد شارع وساعة بعد ساعة ، والملك فى قصره من فوق العرش ، وكبار الضباط والحاشية حافون من حوله على المائدة الملكية دعاهم إليها فى ذلك اليوم احتفالا بأفراح لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فقد بقى له من عقبه ولى عهد ، فلابد من اعتقال ٢٥٠ من الفدائيين بهذه المناسبة . .

أقيمت المأدبة وانفضت فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ،

دار فيها على المدعوين ما لذ وطاب ، من مأكول شهى ، ومشروب روى ، ومسموع شجى ، والشعب لم يكد ينفض يديه من تراب شهدائه ، تراب ينبعث منه ريح الجنة وما أزكاه !

كبار المدعوين إلى المأدبة ، لا يعلمون الفرق فى اللغة العربية بين الوليمة والوضيحة ، أيهما للفرح وأيهما للترح ، وما يقوله وفد التهنئة ، وما يقوله وفد المرزئة ، على كل حال ، لا يعلم غير الله ، ما وراء الغيب ، وعند صفو الليالى يحصل الكدر ..

كبار المدعوين إلى المأدبة ، يعلمون شيئا واحدا هو أنهم أصدروا تعليماتهم إلى الضباط عند إنفضاض الموائد الملكية بتحاشى الأماكن الغاصة بالجماهير ، فى العودة إلى بيوتهم ، خوفا مما لا تحمد عقباه ، وخوفا من الاحتكاك بالمتظاهرين ، سواء كانوا من المدنيين أو رجال الأمن ، ومنعا من حدوث مضاعفات . .

كبار المدعوين إلى المأدبة ، يعلمون أن موعد المأدبة الملكية هو الساعة الواحدة والنصف ، أى بعد إشتعال الحرائق المدبرة بساعة إلا ربع ، ومع ذلك حضروا إلى القصر من الساعة الحادية عشرة .. لماذا ؟ .

وبلغ عدد الحرائق ٢١٧ ، بدأت بكازينو (أوبرا) وانتهت بسينما (هونولولو) بحدائق القبة ، إستعمل فى إضرامها البترول والبنزين والكحول والفسفور ومواد أخرى سريعة الالتهاب ، مواد دخيلة لم تعرف من قبل ، وقدرت الخسائر المادية بحوالى عشرين مليونا من الجنيهات ، ووافق البرلمان على تعويض المنكوبين وأصحاب الحرائق

فى جلسة مستعجلة ، تقررت فيها السلفة التى طلبها على ماهر من الإحتياطى وهم الغانمون . . ونحن الغارمون .

وكان المتظاهرون خليطا من الطلبة والعمال وجنود البلوكات ، إندس فى صفوفهم عناصر من نسل (خنفس) الخائن، وحاول البوليس تفريق جموعهم بالغازات المسيلة للدموع بلا جدوى ، وامتدت خراطيم المطافئ فمزقها اللاعبون بالنار ، وحالوا بين الماء والنار .

غاب عن المسئولين أن الأنفاس الحارة المنبعثة من مراجل الصدور . كانت وحدها كفيلة بإشعال جهنم الحمراء ، التى وقودها الناس والحجارة، وكأنى بالشعب يردد قول شاعر الوعيد . . والحكومة لا تسمع قوله:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

لئن لم يطفها عقــــلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

— يانار . كونى بردا وسلاما —

كان لكل مسئول فى مصر ، يوم ٢٦ يناير أذنان ، إحداهما من طين والأخرى من عجين ، وكان لكل مسئول طبعا يومذاك عينان .. ولكنهما مغمضتان . لا من الخجل والحياء، ولكن من الذلة والصغار. والعياذ بالله ، وضرب الله على أسماعهم وأبصارهم ، فلم تصل إليهم أدنى إشارة حسية من هتافات أو مظاهرات ، وبات كل شيء « على مايرام »

نعم ، على ما يرام ، ولنبدأ من حيث اشتعل الفتيل الأول . .

رأى المتظاهرون عند وصولهم إلى ميدان الأوبرا . أفراد جماعة الكازينو وهم يتدربون على أدوارهم التمثيلية ، فأمعن المتظاهرون فهم

ضربا ولطما وشتما . ووكزا ولكزا . فلاذوا بالفرار حفاة عراة . .
رجالا ونساء ، وحطموا الصالة وأشعلوا فيها النار ، وألقوا بالأثاث
والأدوات فى أكوام كدسوها فى الشوارع ، ثم تركوها طعمة للنيران .
بينما سيارات النقل تنقل اللاعبين بالنار من أقصى المدينة إلى أقصاها .

وكانت الإشارة تعطى هنا وهناك ، أو علامة بالطباشير توضع على
أى مكان ، فسرعان ما يقتحمه اللاعبون بالنار ، وعجلان ما ينهبون منه
ما خف حمله .. وإلا فالنار أولى به، وهكذا ، ما مروا بمكان إلا تركوه
حطاما . . من سينما (ريفولى) إلى النادى الإنجليزى (الترف جلوب)
إلى فندق شبرد، ذلك الفندق التاريخى، إحترق من به من النزلاء والنزيلات . .
وممن كتب الله له النجاة منهم وزير العدل الوفدى محمد محمد الوكيل
وشوهد قابعا فى سيارة واقفة فى ميدان قنطرة الدكة .. وقد التهمت النار
أمتعته وملابسه ، وامتدت ألسنتها إلى محلات عمارة (إيموبيليا) . .
إلى بنزايون ، إلى بنك باركليز، ومنه إنطلقت رصاصة طائشة ، أصابت
عاملا فى المتظاهرين فخر إلى الأرض مضرجا بدمائه ، وحملوه على
الأكتاف .. إلى ميدان عابدين ، والهتاف يشق الحناجر ضد الحكومة
والقصر ، ولم تترك الجماهير هذا البنك فأسلمته للنيران . وازدردت كل
ما به ومات فيه عشرة محترقين ، منهم المصرى والانجليزى، ومنهم زوج
بنت مدير البنك ، مات ومفاتيح الخزائن فى يده . .

وتوزع اللاعبون بالنار فيما بينهم أحياء أخرى لتدميرها وسلبها ثم
إحراقها فى العباسية ، وحدائق القبة ، وباب اللوق ، ومضى كل خسيس

يعمل كل ماسولت له نفسه . لارادع من ضمير ولا وازع من وطنية ، ولا اكتراث بالعواقب .

وما وافت الساعة الخامسة حتى نزل بحديقة الأزبكيه مائة وخمسون جنديا من جنود الجيش ، وفى الساعة السابعة بلغوا خمسمائة استطاعت - بفضل معونتهم - قوات الأمن والمطافىء أن تضع للنار حداً فى أقرب فرصة مستطاعة ، حتى حوصرت ، ولم تزحف ونجت المساكن ، وانقطع الصراخ والعويل ، وانتهى الذعر والهلع ، وكأن الله قد تجلى من عليائه ، وقال :

« يانار كونى برداً وسلاما » ... على القاهرة

— شوارع . . وميادين —

من الذكريات ، مايؤلم إذا استعيد إلى الأذهان ، ومع هذا فإن الفكرة التي تنشر لنا من ثنايا التاريخ تدعونا إلى ذكر أسماء الشوارع والميادين التى عبثت بها الحرائق ، ولحقت بها الخسائر ، وهى :

شارع الأهرام ميدان الإسماعيلية شارع سليمان باشا شارع عدلى باشا شارع الفلكى شارع فؤاد الأول شارع شريف باشا شارع نجيب الريحانى شارع رشدى باشا شارع شق الثعبان ، شارع كامل صدقى باشا شارع كاوت بك ، شارع المهرانى ، ميدان باب الحديد شارع الملكة ، شارع بستان الدكة ، ميدان قنطرة الدكة ، ميدان الخازندار ، شارع صبرى أبو علم ، شارع ألفى بك ، ميدان عابدين ، ميدان مصطفى كامل ، شارع الظاهر ، ميدان إبراهيم باشا . ميدان باب اللوق ، شارع فاروق ، شارع

خليج الحور ، شارع عبد الخالق ثروت . شارع الشواربى ، شارع قصر النيل، شارع محمد باشا صدقى،شارع البستان، سكة المغربى، شارع محمد بك فريد ، شارع الأنتيكخانة، شارع حليم باشا ، ميدان حليم باشا ، شارع عماد الدين، شارع جلال، شارع رشدى باشا، شارع الخديوى إسماعيل ، شارع قنطرة الدكة ، شارع دوبريه ، شارع توفيق ، شارع محمود فهمى المعمارى . . .

ودمرت الحرائق ٢٤ دارا للسينما ، و٨ كازينوهات ، و ٨ فنادق ، و١٥ ناديا ومكتبا ، و ١٣٠ محلا تجاريا ، و٥٠ حانة ومقهى وملهى هذا إلى جانب المطابع والمصانع ومحال بيع السجاير والساعات .

وفشلت كل المحاولات لإطفاء الحرائق أو وقف اندلاع ألسنتها ، وذهبت كلها أدراج الرياح ، وقد صرح الاخصائيون فى إطفاء الحرائق بأن المواد السريعة الالتهاب التى استعملت فى هذه الكارثة غير معروفة لديهم ، ولم يتبينوا تراكيبها الكيماوية فحارت منهم الألباب ، ووضعوا أصابعهم فى الشقوق . .

ولم تكد النيران تلفظ آخر أنفاسها حتى انتقل جو القاهرة إلى خط الاستواء ، وانقلب زمهرير الشتاء إلى قيظ صيف محرق . وانتشر الباحثون عن الأمن فى كل مكان ينصتون ويتسمعون ، ورجعوا بصيد ثمين فقد ألقوا القبض على أكثر من خمسمائة شخص اشتبهوا فى أمرهم وتحفظوا عليهم فى مخافر البوليس . للتحقيق معهم أمام النيابة ومحاكمتهم .

ومما لفت الأنظار أثناء تحقيق شركة (سيبكو) تبليغ موظفى الشركة

عنها ، وبالمعاينة تبين أن موظفى الشركة أنفسهم هم الذين سرقوها ، وتلك إحدى الحالات التى دلت على أن سيف الاتهام قد كان مصلتا على رقاب المواطنين الأبرياء ، بينما اللاعبون بالنار ، والصائدون فى الماء العكر ، قد سرقوا ما سرقوا ، ثم شقوا أصحاب البيوت بالحجارة . .

وهكذا تجمعت خيوط المؤامرة فى أيدى رجال النيابة . .

ويكفى هنا أن نشير إلى التقرير الرسمى للنائب العام الذى نوه بوجود عصيان خطير من عمال المطار وجنوده وموظفيه المدنيين حول أربع طائرات بريطانية ، ومنعوا نزول الركاب منها وأبوا أن يمونوا هذه الطائرات بالوقود . « ثم تمرد جنود بلوكات النظام فى الأقاليم وأبوا أن يقوموا بما كلفوا به من الذهاب إلى الجهات المخصصة لهم لحفظ الأمن بالعاصمة وخرجوا يحملون أسلحتهم فى مظاهرة ساخطين على ما أصاب زملاءهم بالإسماعيلية ، وأخذوا طريقهم وهم يتنادون ويتصايحون بطلب السلاح ، وساروا مخترقين العباسية فالأزهر فميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) فالجيزة حيث لم يجدوا زملاء لهم كانوا يتوقعون وفودهم فاتجهوا إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة) فى التاسعة والنصف واختلطوا بالطلبة وسار الجميع فى مظاهرة صاخبة إلى رياسة مجلس الوزراء حوالى الساعة الحادية عشر والنصف تقريبا ، ثم قامت فى الحادية عشر والنصف مظاهرات عدة ، مظاهرات عمال العنابر والسكك الحديدية ، مظاهرة من الأزهر وأخرى من كليات جامعة ابراهيم (عين شمس) ،

وقد تجمعت هذه المظاهرات بدار رياسة مجلس الوزراء حيث اختلطت بالمتظاهرين من جامعة فؤاد الأول وبلوكات النظام .

ومما نشرته جريدة أخبار اليوم فى ٢٦ يناير أن من بين المقترحات المعروضة للبحث ردا على الاعتداء البريطانى فى الإسماعيلية تسلم السفير البريطانى جواز سفره وإغلاق القنصليات البريطانيـة فى البلاد ، وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع انجلترا . .

قبل الحريق . . وبعـــده

— فى المطار —

قبل أن يبزغ فجر يوم ٢٦ يناير ، يوم حريق القاهرة، يوم البركان الذى رمى بكل ما فى جوفه من حمم تلتهب وصواعق تكتسح، وقذائف تلتهم . . فى وجوه اللاعبين بالنار . . وحدهم . .

قبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم .. هبطت فوق مطار القاهرة الدولى أربع طائرات بريطانية . . وغادرها ركابها الذين كانوا من مختلف الجنسيات.. ومتباين الملل والنحل.. وأوشك عمال المطار وجنوده وموظفوه أن يتخلوا عما فى أدمغتهم من عقول ، واتمروا فيما بينهم على القيام بعمل تخريبى يشفى غليلهم ، ويبرد نار صدورهم المتأججة ، جزاء وفاقا لما أصاب المواطنين فى القنال فى الليلة الماضية ، وكاد الزمام يفلت فعلا، لولا أنهم ثابوا إلى رشدهم واحتكموا إلى موازين العقل ، وقدروا وخيم العواقب ، فآثروا التريث، ومرت العاصفة بسلام .

ولا يخفى أن صدور الجماهير ، لم تعد تحتمل تلك الضغوط المتزايدة وإلا تمزقت الأضالع ، لا بد إذن من مصارف لتفريغ شحنات السخط ، بعد تعبئة النفوس به ضد الملك ، والحكومة ، والإنجليز . وأين للشعب هاتيك الأعناق الغلاظ ، ليقبض عليها بكل ماواتته قوته فلا يدعها حتى يلويها ثم يمزقها إربا إربا ، وأين للشعب سلاح ، أو طريق يوصله إلى القنال لينتقم لمواطنيه الخمسة والستين أو الثمانية والستين من جنود

بلوكات النظام الذين استشهدوا فى الليلة الماضية تحت وابل لا ينقطع من قنابل الأوغاد الإنجليز ؟ وأين لنيران الحقد ، أعز من المتمكن فى الصدور ، أين لها من حطب تلتهمه ، تزداد لهيبها اشتعالا ، ولا تخمد لها أوار ؟ لابد إذن من أحد أمرين : فأما وقود للنار المضطرمة ، وإما انفجار مدمر يهد الأضالع ، ويدمر الصدور .

والنار تأكل بعضها   إن لم تجد ما تأكله

ـ زمالة الدم ـ

وكان جنود بلوكات نظام الأقاليم ـ وهم قوات الطوارىء المحلية ـ يشعرون فى أعماق نفوسهم أن سراج الوفد الوهاج قد جعلهم حطبا لنيران معركة القنال ، وأدركوا أنهم سيلحقون بزملائهم ضحايا متخاذلة متهالكة ولم يعد يخفى على كل ذى بصيرة ما جرته السياسة الخرقاء على البلاد . وما أصابها من ويلات ، بينما الوزراء والملك وأعوانه . والأعيان ، ومحترفو السياسة ، ومصاصوا الدماء ، قابعون فى عقر دارهم حول المدفأة ، يتخذون من الأنباء المذاعة عن هذا الصراع الدامى ، مسلاة يملأون بها فراغهم المترف ، ويصطلى جنود البلوكات وحدهم ناراً ذات لهب وكأنها جمالة صفر ، والشهداء الأبرار يفجع بهم الأهل والولد ولا مواساة فى محنة ، ولا عزاء فى مصيبة ، فالملك أشبه ما يكون بالخنزير البرى ـ وهكذا رسموه فى المجلات والصحف الأوروبية ـ أدار للشعب ظهره ، وليس من اللياقة فى شىء ، أن تجرح أنباء المعركة مسامعه السامية .

خطرات النسيم تجرح خديه ومس الحرير يدمى بنانه

هذا، والأعياد الملكية ماتزال سرادقاتها منصوبة، وموائدها ممدودة والشعب ما باله لا يقهقه، ويطرح الهموم والأشجان جانبا، ليشارك القصر قصر ولى النعم؛ فى أفراحه وأعياده؟! أليس الناس على دين ملوكهم؟!.

هذا ما كان يريد الملك الفرحان من الشعب .. الشعب الذى تتطاير الدماء وتتناثر الأشلاء فى خياله الحاد المرهف، فى ليله الساهر الموصول بنهاره الكادح، وما تزال آفاق السموات معبأة بالغيوم، ملبدة بالدخان مجللة بالسواد، لا تتزحزح ولا تبرح، تطالب بالثأر للضحايا والخسائر والخرائب، تطالبه وحده، فهو الذى يبقى وغيره إلى زوال، وسبحان من له الدوام بعد فناء خلقه.

لم يكن عجبا إذن أن يبادر جنود البلوكات بالثورة العارمة، فقد أصبحت ثكناتهم حظائر لتربية الضحايا، التى تعهد سراج الوفد بتوريدها تباعا لسلخانات أكسهام وأرسكين فى القتال غير عابىء بشئونهم ولا بمطالبهم، بل يأمر بالتليفون، فيكون الرد خالصا، ويقاتلون حسب الأوامر بلا سلاح ... فقد أعددنا لكل شىء عدته، من خيرازانات وبنادق خفراء العزب والقرى.

رأى هؤلاء الجنود أن زملاءهم يذهبون ولا يرجعون، وفطنوا إلى أن الحكومة تُبَيِّتُ أمرا يتنافى مع نشاط الفدائيين، ذلك النشاط الذى تصدع من هوله كل شىء، وكادت تميل من زئيره أبراج لندن ..

وعمدت الحكومة إلى المغالطة واللف والدوران ، فوصفت انطلاق الأسود بعد تهييجها بالتمرد والعصيان ، والخروج على النظام فهى حركة وليس وراءها بركة ، لأنها كما يقول سراج الوفد فى بيانه الذى نشرته (المصرى) فى ١٠ فبراير سنة ١٩٥١ . . . « فتنة داخلية وحركة مدبرة لحق العاصمة وإشاعة الفوضى فى أنحاء البلاد » .

وإذا كانت «مدبرة» فاين عين البوليس السياسى وأين سائر أجهزة وزارة الداخلية ! . أليس ذلك واجبها الأساسى ياسراج الوفد ؟ ألم يكن فى استطاعتك أن تقنع مولاك - وأنت طبعا وزير مسئول عن أمن البلاد - أو على الأقل أن تقنع وزير الحربية ، أو القائد العام للمبادرة باتخاذ التدابير الفعالة والكفيلة بوقف هذا التمرد قبل أن تطل « الفتنة الداخلية » بقرنيها ؟ !

ولماذا لم تبذل المساعى الجدية - لا بالتليفون والأخذ والرد - حتى ينزل الجيش ببعض وحداته إلى الشوارع والميادين - كما فعل النقراشى سنة ١٩٤٧ بالإسكندرية أم أنك أمسكت التليفون واتصلت بالسراى وطلبت الجيش ، ثم قلت لاحاجة بنا إليه الآن ، ثم طلبته وألححت فى طلبه ، فتلقيت وعدا ، فاستنجزت هذا الوعد ، ثم ماذا ، ألم يكن فى نفسك ساعتئذ ياسراج الوفد ، شىء من حب الانتقام من السراى ، والجيش مدفوعا بعوامل « التحزب » الذى أعماك عن سواء الصراط ، ولم ترع مصلحة البلاد العليا . ؟ وهذا بيانك شاهد عليك .

ولكن ما الحيلة ؟ ، وقد اتسع الخرق على الحكومة وانحلت عزائمها

وانفرط عقدها ، وصار من المتعذر عليها أن تسيطر على أعصابها المنحلة وضاعت هيبتها ، وضرب المرءوسون بأوامر الرؤساء عرض الحائط . وتخاذلت حكومة الوفد أمام نفسها وأمام الشعب وأمام القصر والجيش والبوليس والإنجليز والأجانب والتاريخ .

حاولت الحكومة الوفدية كثيرا أن تستر مخازيها ، فلم تجد من تعليل تصف به ثورة جنود البلوكات إلا بأن لهم مطالب رفضتها الحكومة ، وهي تتعلق ببدل الطوارىء الذى توقفت الحكومة عن صرفه لهم ، وهي تهمة باطلة . لا تستند إلى حقيقة الشعور المتأجج فى صدورهم . . المتمكن من دمائهم . المتغلغل فى أصلابهم وأصلاب السلف والخلف . . ذلك الشعور المضطرم فى صدر كل شريك لهم فى هذا البلد . . وتكاد لفحات لهيبه تحرق كل شيء تمر عليه طولا وعرضا . .

شعور شامل . . يطوى بأنسامه الحرى . . جميع البلاد والعباد . . فهل شذ عن هذا شعور طبقات أخرى فى الشعب كالعمال . . والموظفين . والطلاب . . أو غيرهم . . . كلا . . إذن إنه لطعن فى كرامة هؤلاء الجنود . . كرامتهم الإنسانية . . والوطنية أن يقال إنهم تمردوا على النظام لسبب تافه كالذى قاموا من أجله . . وهو المطالبة بصرف بدل الطوارىء المتأخر ؟ ألم يكن المجال واسعا من قبل . . والفرصة سانحة ؟ . ولكن أبى وزير الداخلية ، الجنرال سراج الدين إلا أن يطعن فى جنوده الأوفياء ، ومثل هذا التصدع فى هذه الجبهة بالذات ، أقل ما يوصف به أنه وحده كارثة . .

والحقيقة التي تؤكدها مجريات الحوادث ، أن هؤلاء الجنود كانوا أسرع من غيرهم وأصدق في التعبير عن الكبت الذي كاد يمزق الضلوع . فانهتك الحجاب الحاجز بينهم وبين ما يسمى بالنظام والطاعة . . وقد اتخذ الوزير من هذا النظام وهذه الطاعة ستارا كثيفا يخفي وراءه ما منيت به سياسته من فشل ذريع . . أودى بالقاهرة إلى الهاوية . . وكان هؤلاء الجنود — وهم مواطنون . . من صميم هذا الشعب الدافق الواعي — أول لسان يندلع بالثورة . . على حماة الإستعمار . . وسدنة الإقطاع . . الذين باعوا مصر للعدوان بثمن بخس . . وقد انتفخت كروشهم والشعب جائع . . وتورمت أوداجهم والشعب في هزال . . وأضناهم الترف والسرف . . والشعب يشقى بالحرمان . . وبح صوتهم بالهتاف « أين السلاح . . نريد أن نذهب إلى القنال » . . دعتهم زمالة الدم . . فخرجوا يلبون الدعاء . .

إن الواحد منهم - بشهادة الفقر الرسمية - لا يملك في طول البلاد وعرضها شبرا واحدا . . ولا يستغل عقارا أو رأسمال . . ومع ذلك لم يهن هذا الوطن عليه في الذود عنه . . لأنه يذود عن شرفه حين يذهب إلى القنال . . فإن رزقه ربه الشهادة هناك فذاك خير له ألف مرة من أن يعود إلى حظيرة سراج الوفد . .

— بركان . . لا عصيان —

إذن . . لم يكن خروج جنود بلوكات النظام من ثكناتهم غداة

مجازر القنال ـ بعد الفتك بخمسة وستين أو أكثر من زملائهم . حركة تمرد وعصيان كما يدعى قصار النظر .. ولا حركة إنتهازية لمطالب تافهة .. وإنما هو « بركان » يفور ويمور . . و « ثورة » لها جذورها العميقة السارية فى النفوس . . الضاربة فى الماضى . . آن الأوان لأن تنشق عنها التربة التى حضنتها كالجنين فى بطن أمه .. فلما اكتمل نضجه واستوى خلقه . . جاءها المخاض على إثر ضربات تتلوها ضربات . . فوضعت كل ذات حمل حملها .. ولكل شيء أوان . .

لو كانت حركة تمرد . . بسبب الحرمان من حقوق أو مرتبات أو مكافآت أو علاوات أو متأخرات . لاتجهت الحركة إلى دار الحكومة ، أو على الأقل إلى وزارة الداخلية . فأتلفتها أو أحرقتها ، وتركت أنقاضها أطلالا وخرائب . تنعى من بناها .

لو كانت حركة تمرد . . بسبب وقف صرف بدل الطوارىء . . ما وجد رجال الأمن أنفسهم مدفوعين إلى الاندماج فى حملة السخط و وثورة الغضب . . للعمل المشترك بغية الوصول إلى فجر جديد . يبزغ من حواشى هذه الليالى الحالكة السواد .. التى أطبقت طولا وعرض على صدر الوطن فكادت تزهق أنفاسه . .

لو كانت حركة تمرد .... من ثلثمائة جندى يطالبون ـ فى هذه الظروف الطاحنة ـ الخزينة بقروش تافهة لقد بلوا من الشعب . فى طبقاته مجتمعه ـ بالاستنكار . . بل بالضرب والرجم . . ولكن رجال البوليس فى دار مجلس الوزراء . . وفى الشوارع والميادين .. على مرأى

ومسمع من الوزراء . . اشتركوا فى الهتاف المدوى « أين السلاح . . نريد أن نذهب إلى القنال . . » وكانت أسلحتهم فى أيديهم . فلم يضربوا فى (المليان) . . ولم يصوبوا فوهات بنادقهم نحو صدور المطلين عليهم من شرفات الوزارة . . وإنما صوبوها إلى الفضاء . . مشهدين الله والتاريخ أنهم متضامنون مع مواطنيهم جنود البلوكات . . الذين سبقوهم بشرف الفداء إلى القتال فى القنال . . تضامناً كاملا فى مشاعرهم الفياضة . . الجياشة . وهى مشاعر الجميع بلا استثناء . .

كان فى الإمكان . . يومئذ ـ لو أن هؤلاء الجنود متمردون من أجل دراهم معدودات . . أن يضرموا النار فى دار الوزارة . . إن لم يكن فى سائر دورها ـ أو فى الداخلية وحدها ـ أو اغتيال أكبر رأس فيها . كان فى الإمكان أن ينتهى هذا كله فى لمح البصر . . وسرا لا علانية . . إشباعا لنزوة الانتقام من غاصب حقوقهم . . ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث . . ولم يكن ليحدث ولكن الذى حدث هو أنهم أطبقوا بأيديهم الخشنة على عنق الحكومة ، وضغطوا عليه ثم تركوها رفقا ورحمة بمصالح البلد العليا ، وإنذارا لكل غافل . وإعذارا إلى الله . . ولقد أعذر من أنذر . .

هكذا مثل الجنود بطولة (العفو عند المقدرة) . . فقد هزوا الحكومة الواهية هزا عنيفا ، ولم يكن ثمت ما يحول بينهم وبين الضغط على الرقاب حتى تخرج معها شهادة وفاتها . ولكن الجنود قدروا وعفوا . . والحكومة من الهول فى ذهول . .

المهم : أين وزير الداخلية ؟ . إنه لم يغادر بيته إلى مكتبه بالوزارة

إلا قبيل الظهر.. لا لمباشرة مهام منصبه .. وإجراء اللازم .. نحو سلامة الأهلين وحماية الممتلكات من العابثين بالنظام ، والضرب على أيديهم .. ولكن .. التوقيع على عقد شراء عمارة جورج عريضة رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت .. وثمنها ثمانون ألفا من الجنيهات . . يا لسخرية الأقدار .. !

كيف إذن يخفى سراج الوفد معالم الجريمة ؟ ..

وأبدى البوليس السياسي نشاطا ملحوظا فى القبض على كل مشبوه .. وسنحت الفرصة للانتقام والأخذ بالثأر من المغضوب عليهم .. والزج بهم فى أعماق السجون .. وقد اكتظت بهم ريثما يتم إعداد شهود الإثبات إعدادا مسرحيا .. يدعو إلى الرثاء ..

— النحاس يتكلم —

وفى مساء يوم الحريق .. انعقد مجلس الوزراء .. لدراسة الحالة التى أصبحت بالغة الخطورة .. وبكل سرعة تم إعلان الأحكام العرفية .. وحظر التجول .. وأذيع بيان النحاس الذى برر فيه اتخاذ هذه الإجراءات الاستثنائية .. وطالعتنا الصحف الصباحية يوم ٢٧ يناير بهذا البيان الذى نقتطف منه :

« .. فقد انتهزت عناصر الخونة المارقين ، ودعاة الفتنة المدامين الذين ينتهزون الفرص لمحاولة بث الذعر والاضطراب وإشاعة الفوضى فى ربوع البلاد ، انتهز هؤلاء الخونة فرصة إعلان غضبكم واستنكاركم

لعدوان الإنجليز الوحشى الغاشم فى القنال ، وأخذوا يندسون فى صفوفكم ، ويرتكبون جرائم منكرة مدبرة على المتاجر والمنشآت والمنازل ، وإشعال النيران والتخريب والتدمير والسلب والنهب فأثاروا موجة من الفزع والاضطراب تنزل بقضية البلاد أفدح الأضرار وتهيء لأعداء البلاد فرصة الإيغال فى البغى ، والإمعان فى العدوان »

ولكن الله عجل بإعفاء النحاس من الحكم قبل أن يجف عرقه . . الذى كتب به هذا البيان . .

وغنى عن كل بيان .. أن النحاس قد اعترف بهذا أن الحكومة قد سمحت للشعب بإعلان غضبه . . وغاب عن تدبيره عواقب هذا الإعلان . . وذلك السماح .. مما أدى إلى المصائب والخسائر التى أودت بالقاهرة إلى الدمار .

ولاذت صحف لندن بالصمت العميق . . إزاء هذه الحوادث وتلك الكوارث .. لأنها شئون داخلية لا دخل لبريطانيا فيها .. أما الجنرال أرسكين فأغلب الظن أنه قد أعد الحصان الأبيض . . الذى سيمتطى صهوته فى زحفه على القاهرة .. ودخوله من (باب النصر) . . إحياء لذكرى سلفه الصالح الجنرال (ولزلى) بطل احتلال سنة ١٨٨٢ .

وانتهز الملك فرصة إعلان الأحكام العرفية ، . وكأنه كان معها على ميعاد . . فلم تكد شمس يوم ٢٧ يناير تغرب حتى انتهت آخر صفحة من كتاب « الطرق السلبيه المشروعة ، وقام على ماهر بتأليف وزارته .. وبها تكون أربع وزارات قد توالت حكم البلاد فى مدى ستة أشهر .

وهنا فقط أطلت الحية الرقطاء بقرنيها . . فقد عبرت صحف لندن

ودوائرها العليمة بالحال . . عن أصدق مشاعرها . . وأسمى أمانيها في الترحيب بوزارة على ماهر . .

وانطوت سنتان كاملتان . . تولى فيها الوفد حكم مصر .. استهلكت كل دقيقة فيها أعصاب الشعب المغلوب على أمره . . الشعب المجنى عليه . . المتآمر على حياته حكامه . . وكأنى بالنحاس يتسلم خطاب الإقالة . . أقصد الإعفاء . . وهو يقول « نحن مبسوطون » . . . ولكن : على نفسها جنت براقش .

هذا بينما إيوار مراسل أخبار اليوم في لندن يقول « إن هناك مجالا أوسع للتفاؤل من أى وقت مضى ، وتغيير الحكومة المصرية هو الذى يتيح هذه الفرصة ، وأهم شيء هو ما قاله على ماهر : أن يمهد لأحسن جو يصلح المفاوضات ولكى يمهد لهذا الجو يجب قبل كل شيء ، إعادة الهدوء والنظام ووقف العدوان »

ويسرع عبد الفتاح عمرو سفيرنا في لندن فيبلغ إيدن « أن مصر تريد أن تحل المسألة المصرية على أساس جديد وأن حكومة مصر ليس لديها الوقت الطويل ، إنها تريد أن تسير المباحثات بأسرع ما يمكن ، وذلك حتى تتفرغ مصر لبحث مسائلها الداخلية الخطيرة لأن الإطالة فى هذه المسألة الآن يحدث أسوأ العواقب »

البحث عن الفاعل

ـــ السلف الصالح ـــ

أباح الشعب لنفسه أن يختلس سنة من النوم .. بعد سهاد طويل .. احترقت فيه الأعصاب .. ثم بدأ يستجم لمواصلة الكفاح .. واستئناف ما انقطع من رباط .. وقد كان يتحرق شوقا إلى استطلاع اتجاه الحكومة الماهرية . . ليطمئن على صلابة الأرض التي يقف عليها . . ولكن خيبة الأمل . . قد أصابت المصريين عن بكرة أبيهم . . عندما صرح على ماهر باتجاه سياسة « سلفه العظيم » على حد تعبيره . .

ولو فرضنا جدلا أن على ماهر كان يبغي من وراء مسح الجرح أن يظفر بتأييد برلمان الوفد لسياسته الجديدة . . إلا أنه قد طعن الشعب في تضحياته الغالية . . طعنة قاتلة . . فقد شهد للنحاس بالعظمة . . ورد إليه إعتباره . . الذي سلبه منه الشعب العملاق .. ومن هنا بدأت سياسة الوفديين ـ وهم خارج الحكم ـ تأخذ صفة التقرب من الملك . . والتمسح بأعتابه . ومعنى هذا أن حريق القاهرة . . قد التهمت نيرانه الأحقاد المتبادلة بين الانجليز والحكومة والبرلمان والقصر . . وأصبح الموقف أشبه بحالفة جديدة بين خصوم الشعب . . موجهة إلى قلب الشعب . . لطعنه في الصميم . .

التأم شمل الخصوم على مائدة واحدة .. على حساب الدماء والأشلاء
ويقضي الأمر حين تغيب (تيم) ولا يستأذنون وهم شهود

فهل كان الملك والحكومة والبرلمان والانجليز ينتظرون بفارغ الصبر . . جنازة كمأساة القاهرة . . ليشبعوا فيها لطما وشماتة . . . ؟ !

وهل أقيلت وزارة « السلف العظيم » ليأتى على ماهر ، بأمر ملكى، مضمونه صرف الشعب عن كفاحه ، وتحويله عن قضيته الأساسية . . حينما أرخص أسعار الحلاوة الطحينية قرشا فى الأقة . والسكر قرشين . . مع زيادة إنتاج السمن الصناعى . . والزيت . والأقمشة الشعبية ؟ . .

والإقرار بمبدأ « السلف العظيم » كان لا يمكن أن يحمل على ماهر يتنفس فى جوخانق عبأته أنفاس الشعب . . تلك الأنفاس الحارة الملتهبة . . ولكن هكذا أراد على ماهر لنفسه . . فى دفاعه الضمنى عن الوفد . . وصدق القائل وهو الشعب وقد بقى :

(فى قـــوم يزكى بعضهم بعضا ويدفع معور عن معور)

وهل كان على ماهر يظن أنه يحسن صنعا باتخاذ هذه التدابير كتمهيد لمفاوضة الإنجليز بشأن الجلاء فى الموعد الذى تحدد لذلك وهو أول مارس . . فإذا به يستقيل من الحكم فى هذا الموعد . . لعدم قدرته على تحمل الأعباء الثقال . . التى طرحها الشعب على عاتقه . . ؟ ! وعلى كل حال . . لقد فاز على ماهر برضى الوفد . . وباء بسخط الشعب . . وخلفه أحمد نجيب الهلالى . . صاحب « مخالب القطط » الوفدية القديمة . . فاستصدر مرسوما بحل البرلمان . . وأخفى فشله هو الآخر فى المفاوضات مع الإنجليز على ترويض الشعب وتخدير أعصابه . . نعمد إلى سياسة تطهير الأداة الحكومية من آثار المحسوبية والاستثناءات التى تعتبر

من مخلفات الوفد . . ورواسب مخازيه . ولم تمتد إليها يد على ماهر بسوء . . إكراما لسلفه العظيم . .

واستقال الهلالى بدوره فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٥٢ غير مأسوف عليه بعد أن وضع قضية البلاد على الرف يعلوها تراب الإهمال ، ويعشش على جوانبها عنكبوت الخزى والخذلان ، ومن الطبيعى أن تلتوى الطرق مادامت البداية غير سليمة .

إذا أفسدت أول كل أمر أبت أعجازه إلا التواء

وجاء حسين سرى ليستقيل بعد عشرين يوما من توليه المنصب .. فقد تحرج الموقف ، وأوجده الملك فى ورطة .. بأصراره على تعيين الحاشية فى الوزارة ، وأعيد الهلالى ثانية لتنفيذ الرغبات السامية : تعيين إسماعيل شيرين وزيرا للحربية .. كما فرض كريم ثابت ليكون وزير دولة فى حكومة سرى . بعد أن أخذ يتقرب من الملك حتى لقى الحظوة لديه فجعله مستشاره الصحفى . .

ــ المحاكمات ــ

على أثر حريق القاهرة الذي روعت به البلاد واجتاحتها بسببه عوامل القلق ، وعدم الاستقرار فى جهاز الحكم ، شكلت محكمة عسكرية عليا ، لمحاكمة المتهمين بالاشتراك فى أعمال التخريب والتدمير .

وتوالت المحاكمات وصدرت الأحكام ، ومحكمة التاريخ لم تنعقد ، ولم يصدر حكم إلى الآن ، ولكن شيئا واحدا يسترعى الانتباه حقا

هو أن حريق القاهرة قد بدأ بحرق (الأوبرا) وهى دار التمثيل ، ولم تخمد النيران إلا بعد حرق العرش ، وهكذا أسدل الستار الختامى للرواية التمثيلية ، والشعب المصرى دائما هو المفترى عليه .

— بعد خمسة عشر يوما —

كان من الطبيعي أن تفرض الأحكام العرفية رقابتها على الصحف ، وتمنعها من نشر كل ما يمس حادث حريق القاهرة ، حرصا على سير التحقيقات ، فلزمت دور الصحافة جانب الصمت فترة ليست بالقصيرة أدت إلى بلبلة فى الأفكار ، وتبودلت فيها التهم بين الحكومة والقصر وبعض كبار المسئولين فى الأحزاب والإنجليز والشيوعيين والإخوان والصهيونيين ، وإذا بدار (أخبار اليوم) تشق هذا الصمت القاتل باتهام صريح لفؤاد سراج الدين بحرق القاهرة ، وتحميله المسئولية كاملة فيما حدث . .

وبادرت (جريدة المصرى) بنشر بيان طويل خطير لوزير الداخلية الوفدى الذى تم فى عهده الزاهر « حريق القاهرة » . . أراد سراج الدين ببيانه المنشور صباح ١٠ فبراير سنة ١٩٥٢ أن يضع حداً للتهم التي شنت غاراتها عليه (دار أخبار اليوم) ، والتى كشفت مخازى الوفد من سرقات ومحسوبيات نشرتها تباعا ، مشفوعة بالصور الناطقة ، وتناولت فضائح الوزراء الوفديين وألاعيبهم فى سوق القطن وتراخيص الاستيراد ، تحقيقا لمكاسب فردية ، واعتمادا على مناصبهم الوزارية ، واستغلالا لها ، وظنا منهم أن الوزير كالملك : ذاته مصونة لا تمس . .

وألقى سراج الدين التبعة على كبار المسئولين فى الجيش لإهمالهم إرسال القوات إلى مكان الحادث ، وقد تردد طويلا فى طلب نزول الجيش فهو يتصل بالقصر ليطلب نزول بعض وحداته منه ، ثم يقول ثانية : لاداعى .. ويعود ملحفا فى الطلب بنزوله لخطورة الحالة وتفاقم الحريق ، كل ذلك بالتليفون طبعا ومن منزله ، وأثناء مأدبة الغداء الملكية التى شمل بها الملك بعطفه ضباط الجيش والبوليس ، وانفضت بعدالظهر ، ونصحهم عثمان المهدى باشا بالانصراف إلى بيوتهم توا بعيدا عن أعين المتظاهرين ، حرصا منه على هيبة الجيش ، وخشية وقوع احتكاك المدنيين بالقوات المسلحة . .

وقد بذل سراج الوفد فى تحبير بيانه هذا مجهودا لا بأس به ، لإقناع الشعب المفترى عليه أنه برئ من الذنب ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وكأنه يتمثل بقول الشاعر :

إننى لست من جناتها علم الله   وإنى بحـــرها اليوم صـــالى

ونسى سراج الدين أو تناسى قول الأقدمين : (يداك أوكتا وفوك نفخ) . فذهبت مثلا . .

ولما كان بيان سراج الدين ينطوى على اتهام صريح للجيش بالإهمال فى هذا الصدد ، فقد أمر على ماهر رئيس الحكومة بالتحقيق فورا مع صاحب البيان فيما جاء على لسانه بجريدة المصرى بعد خمسة عشر يوما من الحادث المشئوم .

لم تكد حرائق القاهرة يخمد لهيبها اللافح ، حتى أصابت الفاجعة بريطانيا العظمى والعالم الحر معها ودول المستعمرات فيما وراء البحار ، لم لا وقد مات جورج السادس ملك الإنجليز فى ٦ فبراير سنة ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة بأيام ، وآل التاج البريطانى إلى الملكة اليصابات ..

وحرصت حكومة فاروق على ألا يفوتها واجب التعزية فى الفقيد الراحل ، فالمشرقان عليه ينتحبان ، قاصيهما فى مأتم والدانى ، فلا أقل من إيفاد « بعثة الشرف المصرية » إلى لندن برئاسة الأمير السابق محمد عبد المنعم وعضوية عبد الفتاح عمرو سفير مصر السابق المسحوب من لندن ، ومصطفى صادق مدير شركة (سعيدة) للطيران ، الشركة التى للملك فى رأسمالها عدد كبير من الأسهم الرمزية لأنه شريك مرفوع ..

سافرت البعثة على متن طائرة خاصة للاشتراك فى تشييع جنازة فقيد بريطانيا ، التى اعتدت بدباباتها ومظلاتها ومدافعها على شرف حكومة مصر وعرش مصر وشعب مصر ، وأعدت الفتيل ، وغمسته فى البترول ، وأشعلته بأول ثقاب فى جيبها .. فاشتعلت القاهرة ..

وبالغ فاروق فى التعبير عن أعمق أحاسيسه باللوعة والأسى على فقيد العالم الحر ، وفقيد ما وراء البحار ، بما أنساه أفراحه الموصولة ، فلم يطفىء لهيب أحزانه إلا تأكيده للملأ الأعلى بأن المصاب قد حز فى فؤاده ، وأثار لواعج الحزن ، ولهذا أناب عنه الأمير محمد على وعلى ماهر والوزراء ورجال السلك السياسى لحضور حفلة الصلاة على روح

الملك الراحل فى الكاتدرائية الإنجيلية بمصر فى تمام الحادية عشرة من صباح الجمعة ١٥ فبراير سنة ١٩٥٢ . .

فى هذه الساعة ، حيث يقيم المسلمون فريضة الجمعة فى الجوامع ، يكون ممثلو مصر حكومة وعرشا وهم مسلمون ، ويعرفون جيدا أن دين الدولة هو الإسلام ، يكون هؤلاء بصفة رسمية وبأمر ملكى ، تحت قبة الكنيسة ، يبكون مع الباكين ، المناظير السود على عيونهم ، وشارات الحداد على صدورهم . . وأذرعهم . . يفعلون ما يؤمرون . . .

وانتهت أيام الحداد الرسمية . . على الملك الراحل . . فى مصر . . وارتفع العلم المصرى بعد تنكيسه فوق القصور والدور . . وجاءت حكومات وأعقبتها حكومات وأذيعت بيانات . . ونشرت بيانات . . وكثرت المحاكمات . . والاعتقالات . . للبحث عن الفاعل . . وهو اللازم . .

وحل شهر رمضان . . أول رمضان بعد الفوران والغليان . . وطبعا فتحت أبواب الجنة . . وغلقت أبواب النار . وسلسلت الشياطين . . وعقد وزير الداخلية مرتضى المراغى مؤتمرا صحفيا بمكتبه . . وزع فيه على الصحفيين النطق السامى للتهنئة بحلول شهر الصيام والقيام . ونشر البيـــان الملكى بما يليق به فى الصفحات الأولى حول صورة الملك فى إطار كبير . .

وبما جاء فى هذا البيان . . « إن سياستنا هى سياسة الحرية والوحدة . . وقد وحدت بين العرش والأمة والحكومة وسنبقى أمناء على هذه السياسة » . .

تلك هي المغالطة بعينها . . ولكن يكاد المريب يقول خذونى . . فقد برح الخفاء . . وانكشفت دلائل التصدع رسميا فى العرش والأمة والحكومة . وأدرك فاروق والمراغى بوارق الخطر . فكان البيان المنشور بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ (أول رمضان هذا) . . صورة مقلوبة للحقائق . . وما أكثر الإخصائيين فى قلب الحقائق . .

ذلك أن الملك قد أصدر مرسوما بتعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٥١ . وصدرت جريدة (نيويورك تايمز) الأمريكية تبارك هذا التعيين الذى وصفته « بالشعاع الأول من النور الذى يمزق اكفهرار جو مصر منذ أن قطعت العلاقات مع بريطانيا » .

وتنبأ الاستعماريون عقب هذا التعيين « بحدوث تطورات داخلية فى مصر لأن ذلك من شأنه أن يقسم الجبهة المصرية ويحول اهتمام الرأى العام من نضاله ضد الإنجليز إلى تطورات الجبهة الداخلية . . . » وعبرت الجريدة أيضاً عن خشية بريطانيا من « أن تجرى الحوادث فى الطريق الخاطىء . . فينتهى الحال فى مصر إلى الفوضى ووقوع حوادث لا تحمد عقباها » .

هل أدرك مسئول فى حكومة مصر مغزى هذا الكلام . . ؟ الكلام الذى أذيع ونشر قبل حادث ٢٦ يناير بشهر كامل . . كلا . . فالحكومة فى واد . . والجبهة الداخلية كلها فى وديان أخر . . رشوة . .

فساد .. تفكك .. تواكل .. تشاؤم .. إلى آخر هذا الطابور من عوامل الهدم والخراب . .

يكفى أن نذكر هنا كدليل على الانهيار الاقتصادى الناجم عن الانهيار السياسى . . وما تبعه من أصداء فى المجال الدولى أن ودائع البنوك سنة ١٩٥١ كانت ٢٢٢ مليون جنيه هبطت فى سنة ١٩٥٢ إلى ١٨٩ مليونا ، كما بلغ عجز الميزانية ٣٨ مليونا من الجنيهات . .

يا مضرمى النار أصبحتم لها حطبا

— نيرون القاهرة —

لا بأس . . إذا تخيلنا يوم البعث والنشور .. وقد جيء بالجبابرة الطغاة صفاً صفا . . وملايين البشر من ضحايا عسفهم وخسفهم .. عن يمين وشمال . . يشيرون بكل جوارحهم .. إلى هؤلاء الذين طغوا فى البلاد .. فأكثروا فيها الفساد .. فصب عليهم ربك سوط عذاب .. إن ربك لبالمرصاد . .

ولا بأس .. إذا تخيلنا ، فى طليعة هذا الصف الطويل .. « نيرون » الجبار .. السفاح الأكبر .. قاتل زوجه . . المتآمر على إغراق أمه . . وحارق « روما » .

تولى (نيرون) حكم روما سنة ٥٤ م . وكان حدثا صغيرا .. عنى بتربيته ، فيلسوف الرومان (سنيكا) .. فأحسن تربيته وتقويمه .. وكان عادلا فى السنين الخمس الأولى من حكمه .. وكان حميد السيرة والسريرة .. ولكنه انقلب شيطانا رجيما يسفك الدماء .. ويتلهى بتعذيب البشر .. أصابته لوثة . . فصار ينشد ويغنى . . وقلب المسيحيين ظهر المجن . . هم واليهود فكان يأمر بسلخ جلودهم ، وإلقائهم للوحوش الجياع . . تنهش لحومهم وتفرى عظامهم ، فى ميادين الألعاب ..

جن جنونه ، فقتل زوجته وأمه ، واتخذ من حريق روما سنة ٦٤م

ماراة لفنه .. فكان يغنى وينشد .. وهو يطل من شرفة القصر .. على الحرائق المجنونة وهي تلتهم الأخضر واليابس .. والجماهير فى ذعر وهلع مابعدهما من مزيد . وأمسكت الحقيقة بتلابيبه ، ولكنه فر من سيولها الساخطة إلى أرض أحد عتقائه ، فما إن أحس بيد الثوار تقترب منه ، حتى طعن نفسه بخنجر وهو يقول « سيفقد العالم بفقدى منشدا فريدا » .

هذا « المغنى القبيح » .. الذى أحرق روما .. انتحر فمات سنة ٦٨م. وبحرق روما ، وانتحاره ، انقطعت سلالة القياصرة . .

وليس هناك مثل العذر الذى هو أقبح من الذنب ، أبلغ من قول بعض المؤرخين القدامى عن (نيرون) ، « والأرجح أنه ليس السبب فى حريق روما ، ولكنه اتخذه وسيلة للإيقاع بالمسيحيين »

وما أشبه فاروق هذا بنيرون ذاك ، هذا سليل القياصرة ، وذاك سليل القراصنة ، هذا حارق روما ، وذاك حارق القاهرة هذا وذاك اتخذ حرق العاصمة سبيلا للقضاء على الشعب ، فاحترق هو وبقى الشعب .

أم فاروق (نازلى) تنحدر من سلالة الجنرال سيف الفرنساوى ، طرده نابليون من الجيش ، لشراسته وعجرفته ، فلما لم يجد ما يسد به رمقه ، استخدمه محمد على ، لتدريب عسكره ، وربطت بينهما أواصر المصاهرة . .

وأبو فاروق ، من سلالة محمد على ، صاحب مذبحة القلعة ، ومذبحة أبو قير . . وطء عن الشعب فى ظهره بعد معركة رشيد سنة ١٨٠٧م . . وحليف الإنجليز ..

عاش كل من فاروق ونيرون . . فى حالة من النفاق والملق . . فقد ذهب نيرون الى أثينا ليشهد ألعابها فتقربوا إليه بأكاليل الغار ، ليأمنوا شره . . وسقط فى السباق الأولمبى . . فصفقوا له استحسانا . . فسر منهم . . ومنحهم استقلال بلادهم .

وأصيب فاروق بكسور رضية فى (القصاصين) ، أثناء مطاردة نسائية ، فهرعت إليه مواكب النفاق ، لتقديم القرابين ، والتسابق والتنافس فى تقويس الظهور، وإظهار أبلغ آيات الطاعة والولاء وللمارحلة الى (كابرى) و(دوفيل) . للاستمتاع بالعاهرات، ومصاحبة الراقصات. والسهر فى المقامرات ، اتخذ النحاس من (دوفيل) كعبة شريفة يرنو اليها. وهو يهنىء الشعب بالعيد ، والملك عنه بعيد ، فقد رأى تقلب وجه فاروق فى البلاد . والنساء . فأقسم ليولينه قبلة يرضاها . . هكذا كان نيرون القاهرة .. وهكذا كان النفاق طويل الذيلة . .

— ما أشبه الليلة بالبارحة —

لم يكن حريق القاهرة .. أول حريق من نوعه فى مصر .. فما أكثر الحرائق السياسية التى ابتليت بها العاصمة المصرية .

ونحن إذا ضربنا صفحا عن حرائق الإسكندرية ، عاصمة مصر الرومانية ، ومضينا الى عواصم مصر الإسلامية فى خلال القطاع الزمنى المحصور بين ماضى (الفسطاط) وحاضر (القاهرة) وما تخللهما من عواصم أخرى كالقطائع والعسكر ، رأينا أن لحريق القاهرة أشباها ونظائر ، وأن الظروف فى كل ، تكاد تكون متشابهة متماثلة ، إذ

جميعها على الأخضر واليابس ، وخلفت وراءها هشيما تذروه الرياح ، ومع ذلك ما يزال فى خلال الرماد ، آثار الشظايا وحطام البقايا ، تهتف بفكرة صارخة لا محيص عنها ولا مفر منها ، وهى : أن الذين أحرقوا العاصمة المصرية فى خلال ما يزيد على الألف سنة الماضية .. هم أعداء لا أبناء مصر .. أحرقوها فأحرقتهم وختمت بهم .

وسيرى القارىء الواعى .. كيف نستخرج له هذه الحقيقة لامعة براقة من بين أنقاض الحرائق المتوالية .. ليتأكد تماما أن الذين تآمروا على الشعب ، وائتمروا بإضرام النار فى العاصمة .. كانوا دخلاء عليها وعلى أهلها .. وغرباء عن آلامنا وآمالنا ، لا أصل لهم ولا فصل ، كلهم اغتصبوا الحكم على حين غفلة منا .. كلهم حثالات بشرية من قطاع الطرق ، وشذاذ الآفاق ، وعصابات القراصنة ، من حملة البلطة — ولذا سموا (بلطجية) — هى سلاحهم فى النهب والسلب وسفك الدماء ، لا وازع أو رادع من خلق ودين . .

وانتهوا جميعا إلى هذا الخاتم الحاتم ، لجبروت كل نيرون : وكل نمرود . أما الشعب فهو دائما (أبو الهول) الذى أذل الطغاة وأدال منهم ، فإذا كان حريق روما قد انتهى بزوال القياصرة على يد نيرون ، فإن مروان بن محمد ، حارق الفسطاط قد ختم ملك بنى أمية ، وختم محمد بن سليمان حارق القطائع دولة بنى طولون . . . وهكذا . . حتى ختم فاروق بحرق القاهرة . . أسرة الأرناؤوط .

— الامويون .. وحريق سنة ١٣٢هـ —

هنا الفسطاط :

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر ، اختار مكانا يحل محل الإسكندرية ويصلح عاصمة لمصر العربية ، ويتلاءم مع ظروف الخلافة ، وسهولة الاتصال بمركز الإسلام ، فأنشأ الفسطاط ..

وقد أسهمت مصر في الصراع الحزبي ، الذى نشب بين أنصار على ، أنصار معاوية ، بعد مصرع (عثمان) . ولما رجحت كفة (على) على كفة (معاوية) ، كان ذلك نصراً لمصر ، وإيذانا ببداية نهضة المصريين ، حتى إذا اغتيل آخر الخلفاء الراشدين (على) ، وانتقلت الخلافة إلى (معاوية) رأس الأمويين ، أصرها المصريون فى أنفسهم ، وزادت كراهيتهم لبنى أمية ، لما انغمسوا فيه من ترف ونعيم ، ظلوا يتقلبون فى مظاهرها ردحا من الزمن ، وكان آخر الأمويين مروان بن محمد .

فر مروان إلى مصر ، واستقر بها ، وخالجته عوامل الضغن القديم على مصر والمصريين ، وانحدرت إلى صدره العداوة التقليدية بين المصريين وبين بنى جلدته ، كابرا عن كابر ، فما إن وطئت قدماه أرض الكنانة ، حتى أمر بإضرام النار فى الفسطاط (١٣٢ هـ — ٧٤٩ م) .

وكان عبد العزيز بن مروان : (٦٥ — ٨٦ هـ) قد عنى بإقامة قناطر على النمط الرومانى الشرقى ، بواسطتها تصل المياه من عيون قريبة من جبل المقطم إلى البركة الكبرى التى أنشأها ! ومن بين هذه القناطر ، قنطرة تصل الفسطاط بجزيرة الروضة ، أتى الحريق على هذه القنطرة، فدمرها .

وعبر الأموى الهارب، مروان بن محمد، إلى الشاطئ الغربى للنيل، وتبعه إلى هناك جيش العباسيين يقوده (صالح بن على) ، و (أبو عون ابن يزيد) ، فقتله هو ومن معه، فى بلدة (بوصير) بالفيوم، واحتزوا رأسه من جسده ، وطوفوا به فى أنحاء البلاد، على رءوس الأشهاد ، إشارة إلى غروب شمس بنى أمية فى مصر، وبزوغ حكم العباسيين بها .

وهكذا ختم مروان الدخيل دولة الأمويين بحريق الفسطاط بعد أن قضوا ٨٢ سنة ، تماما كما ختم فاروق الغريب دولة محمد على بحريق القاهرة بعد أن لبثوا فى الحكم ١٥٠ سنة ، وكما ختم نيرون عهد القياصرة ، بحريق روما .

— العباسيون . . وحريق سنة ٢٩٢ هـ —

هنا القطائع :

رأينا كيف أن مروان بن محمد كان آخر سلالة بنى أمية ، حارق الفسطاط، الذى لقى حتفه ، فكان مصرعه الأليم خاتمة المطاف ، لحياة كلها بذخ وترف وإسراف ،

ويشبهه (خمارويه) . . آخر عنقود فى دولة بنى طولون .. تمادى فى البذخ ولا سيما فى جهاز بنته (قطر الندى) وزفافها للخليفة العباسى المعتضد (٢٨٢ هـ) و(القطائع) يومئذ عاصمة الطولونيين ، فكان الموت أسرع إلى تجميد المصاهرة . . قبل تمامها بين مصر والعراق . . وحالت الحواجز والقواطع بين بغداد والقطائع . . بين العباسيين والطولونيين . . بين العراقيين والمصريين . فقد مات المعتضد (٢٨٩ هـ) بعد أن سبقته إليه الموت (قطر الندى) وقبلهما .. ومن قبلهما (خمارويه) .

وكانت مصر فى ازدهار .. أطمع فيها بنى العباس . فهذا (المكتفى)
يبعث قائده وكاتبه محمد بن سليمان . . ليعيد مصر إلى حظيرة العباسيين .
كما كانت قبل الجهود التى بذلها أحمد بن طولون فى الاستقلال . . وكللت
بالنجاح .

انهزم الأسطول المصرى فى هذه الملحمة . . وفر هارون بن خمارويه
إلى (العباسية) الواقعة على حدود مصر والشام . . وهناك فتك به عماه
شيبان وعدى . . وجاء شيبان بعد الفراغ من دم ابن أخيه .. ليتولى أمر
مصر . . فلم يرض به الجند . . وفاوضوا محمد بن سليمان . . فتقدم إلى
الفسطاط .. على عجل . ومضى إلى القطائع (٢٩٢هـ - ٩٠٤م) . وأشعل
فيها النار . فالتهمت الدور والقصور والمساجد والحمامات . وأتت على
الأسواق والبساتين . . وصارت أثرا بعد عين . ولم تعد إلا خرائب
ينعق فوق أطلالها البوم والغربان . . ولم يبق غير المسجد الجامع شاهدا
على طغيان ابن سليمان الذى ختم بحرق القطائع . . دولة بنى طولون . .
تلك الدولة التى دامت ثمانية وثلاثين عاما . . بعدها صفا الجو لقائد
المكتفى وكاتبه .

غير أن هذا الصفو لم يدم أكثر من أربعة أشهر . ابتز فيها أموال
الشعب بالسحت والرشوة . . والنهب والسلب . . فكان ذلك سببا فى
إبعاده عن البلاد . . ونفيه إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم .

— الإفرنج . . وحريق سنة ٣٨٣ هـ —

هنا القاهرة :

فتح جوهر الصقلى مصر لحساب المعز لدين الله الفاطمى . . مؤسس

القاهرة . . وبانى جامعتها العريقة « الأزهر » وقد خلفه فى الحكم ابنه العزيز بالله .. وكان العزيز مغرما بإنشاء الأساطيل .. تجوب البحار .. وتؤدب القراصنة .. وتحمى الثغور الإسلامية .

وكان بالمقس . . دار صناعة السفن ، لا يبطل فيها العمل ليلا أو نهاراً ، وكان يسكن بجواره هذه الدار طوائف النصارى والإفرنج . . نعرف من بيوتهم دار ماتك .

وكان يوم ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ . . يوم جمعة . . خرج فيه المسلمون إلى الصلاة الجامعة ، وما إن انتهوا منها حتى رأوا النيران قد تشبث فى دار الصناعة . فاحترقت بعض قطع الأسطول ، ولم يبق إلا ست عشاريات ، بعد أن التهمت خمسا منها ، وبادر ذوو الشهامة إلى معاونة البحارة ورجال دار الصناعة . . على إخراج السلاح خوفا من المضاعفات .

وثار الشعب ضد اللاعبين بالنار ، وأقسم على الانتقام من حارقى أسطوله ، ومطايا تجارته الخارجية ، وانقض المتظاهرون على النصارى ، وعلى الإفرنج ، وقد تبين أنهم هم الجناة ، فنهبوا دورهم ، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة ، ولم ينج من هذه المذبحة إلا من حبس نفسه فى عقر داره .

وظلت الشرطة تحقق وتدقق ، حتى اعترف الإفرنج على أنفسهم اعترافا كاملا بتفاصيل المؤامرة ، وعندئذ أتى بهم متولى الشرطة (مسعود الصقلبى) ، وأمر فضربت أعناقهم بالسيوف . .

— شاور .. وحريق سنة ٥٦٤ هـ —

هنا القاهرة :

بلغ العاضد الفاطمى من الضعف إلى حد أن تنازع سلطاته وزيراه (شاور) و (ضرغام) ، واحتجب الخليفة ، وصار لا يهش ولا ينش ، وتمكن شاور من تدبير مؤامرة يتخلص بها من ضرغام ، الذى فر إلى الشام .. مستنجدا بنور الدين محمود زنكى ، صاحب الشام الرابض بها كالأسد الهصور فى وجه غارات الصليبيين ، ونجح ضرغام فى إغراء نور الدين بغزو مصر .. فصادف ذلك هوى فى نفسه ، وأرسل معه جيشا كثيفا يقوده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ..

وانهزم المصريون ، وخر ضرغام صريعا فى المعركة ، وأدرك شاور أن الحوادث أصبحت أكبر منه .. وأدرك الخطر محدقا به من كل جانب .. فلجأ إلى عدو عدوه .. الصليبيين .. الذين روعوا سواحل مصر بغاراتهم برا وبحرا ..

أشار (شاور) على (عمورى) ملك الإفرنج بحرق العاصمة فى ٩ صفر سنة ٥٦٤ هـ .. فأصدر أمرا عاجلا بإجلاء الناس عنها .. متوعدا متهددا .. فساد الذعر .. وعم الخطب .. ولم يدر الآمنون الوادعون .. أين يذهبون .. بأموالهم وعيالهم .. ونسائهم وشيوخهم .. وعجزوا عجزا تاما عن حمل أى شىء مهما خف وغلا ..

أرسل شاور عبيده . وبأيديهم المشاعل .. ومن خلفهم صهاريج الزيت .. وأضرموا النار .. فى كل مكان تصل إليه مشاعلهم .. بلا

وحمة . . وبلا تمييز . . وظلت النيران تضطرم . . والمشاعل تتقدم . . حتى احترقت الفسطاط عن آخرها . .

واستمرت النار تحصد المساكن : . والأماكن أربعة وخمسين يوما كما استمر الصليبيون يعيثون فسادا فى البلاد . . يهدمون المساجد . . ويسلبون الناس ما معهم . . ويهتكون الحرمات . .

وفى إبان هذه الحرائق .. أرسل شاور (شمس الخلافة) إلى (عمورى) فى معسكره . . وسأله أن يخرج معه إلى خارج خيمته . . وأشار بيده إلى الدخان . . المتكاثف فى سماء مصر . . ودار بينهما الحوار الآتى :

— أترى دخانا فى السماء ؟

— نعم .

— هذا دخان مصر . .

— ؟ . ! . . ؟ !

— فإنى ما أتيت إلا وقد أحرقتها بعشرين ألف قارورة من النفط، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل . . ولم يعد فيها نفع . . فخل عنك الآن مدافعتى .. ولكن كما قلت لك أنزل فى مكان تقدمه إلى غيره . . ولم يبق لك إلا أن تنزل القاهرة . .

— هو كما تقول . . ولابد من نزول القاهرة . . ومعى إفرنج من وراء البحر قد طمعوا فى أخذها .

و نزل (عمورى) بخيمته فى القاهرة ، وصارت السهام التى صوبها الشعب

إليه تنهال عليه من كل مكان. تقع فى خيمته أو منها بقريب ، واشتدت المقاومة الشعبية عنفا . فأدرك شاور وخيم العاقبة ، بالنسبة إليه أولا . ثم بالنسبة لخليفه ، فعرض عليه أن يدفع له اربعمائة ألف دينار يأخذ منها ربعها فوراً .. فى نظير وقف القتال .. ولم يجد (عمورى) ما يمنعه من قبول هذا العرض السخى ..

أما العاضد .. فقد استنجد بنور الدين فى الشام .. وبعث إليه بشعور نسائه .. فوافاه منه جيش يقوده شيركوه وصلاح الدين للمرة الثانية ... ونصب صلاح الدين كمينا لشاور .. واغتاله .. وتخلص منه وخلص الشعب من شره .. فهو الذى استقدم العدو إلى مصر .. وأشار بحرق الفسطاط .. وتعهد للإفرنج بثمن تدخلهم لحسابه الجارى .. وسمح لهم بحامية دائمة فى مصر .. وباسمه استحلوا السلب والنهب .. ولكن صلاح الدين ـ الذى لقبه الخليفة العاضد بالملك (الناصر) ـ لم يكتف بقتل شاور .. بل أطاح معه برءوس ابنه الكامل وأولاد إخوته جميعا .. وأرسل العاضد برءوسهم إلى أسد الدين شيركوه .. فى أطباق من الفضة .. وهكذا كان ختام الخونة المارقين .. رءوس الفتنة .. والخيانة .. والحريق .. وسرعان ما رجع (عمورى) بجيشه الفاشل .. عندما بلغته أنباء المدد الذى جاء به إلى مصر جيش نور الدين ..

— الصوفى . . وحريق سنة ٩٧١ هـ -

هذا القاهرة :

وابتليت مصر بالاحتلال التركى . . فاجتاحتها أعاصير الفوضى . واضطربت فيها حبال الأمن . . وتحكم فى رقاب أهلها مسوخ بشرية .. لهم كروش كجهنم لا تشبع . . تقاصرت فترات ولا يتهم وهز لهم .. فألهبوا ظهور الشعب بالسياط ..

من هؤلاء الولاة الطغاة . (على باشا الصوفى) . جاء مصر فى أول رجب سنة ٩٧١ هـ قادما من بغداد .. فأرخى لنفسه عنانها فى المظالم والمغارم . . وقامت طائفة (الفداوية) . . فأوقدوا النار فى القاهرة .. لخلق حالة من الذعر . . على إثرها تمكن السلطان وعساكره . . من إشباع بطونهم . . بما خطفوه من أيدى الناس . . وامتدت النيران إلى (الجامع الأبيض) . . وما من شىء أتت عليه إلا جعلته كالصريم . .

ولم يخطر ببال الشعب .. أن يجأر بالشكوى إلى الوالى . . المعتكف بالبرج العاجى . . ولن يكون الشعب فى شكاته إليه . . إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار . . فقد دلت الظروف على أن الوالى شريك اللاعبين بالنار . . وقسيمهم فيما يسلبون . . . ثم هو لا يملك لهم دفعا لأنهم لارواتب لهم .. ولا نظام يجمعهم .. هم عصابات من الدلاة .. من الجنود المرتزقة . إذا لم يطلقهم كالكلاب تنهش الأعراض . انقلبوا عليه وفتكوا به « وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه » كما يقول صاحب (الكافى).

وأدرك الشعب خطورة الموقف . . فتعاون أهل الخير .. على إقامة سور عظيم . . يمتد من (قنطرة الحاجب) إلى (الجامع الأبيض) للحيلولة بين العاصمة وبين غدرات أرباب السوابق . . وحملة البلط . .

ورابط الحرس الوطنى من المتطوعين حول الأسوار . . فهدأت الخواطر . . وانطفأت الفتنة . . والوالى (على قلبها إلى طولون)

ولم تكد تخمد نيران الحريق .. الحريق الصوفى .. حتى جاء فرمان العزل .. وأعقبه فرمان بتولى محمدعلى باشا الشهير بالمقتول شئون مصر . فجاء يستعجل الزفة التقليدية إلى القلعة . . وبز « سلفه العظيم » فى عسفه وخسفه . . فقد ملأ الأرض مثله ظلما وهضما .

وثقيل ما برحنا   نتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا   فأتى أثقل منه

— كليبر ومراد .. وحريق سنة ١٢١٤ هـ —

هنا القاهرة :

قدم (نابليون بونابرت) إلى مصر . فى إحدى مغامرات القرصنة التى تلقى دروسها عن أسلافه الفرنسيين . . ولم يكد يطيب له المقام بمصر . . حتى لاذ بالفرار . . تحت جنح الظلام . . وألقى بمستقبل مغامرته بين يدى خليفته « كليبر » .. وحمله أمانة الحرص على حياة كل جندى فرنسى فى الحملة الفرنسية ، وقامت ثورة القاهرة (١٢١٤هـ — ١٨٠٠م) ولم يدع الشعب وسيلة للدفاع عن نفسه إلا سلكها . وإذا اختصم اللصان ظهر المسروق .

والمسروق هو الشعب . . واللصان المتخاصمان هما دولتان : دولة الفرنسيين . . ودولة المماليك . . وكلتا الدولتين فى حرج أمام شعب اتخذ عداوته لهما دينا ، وجعل كفاح مظالمهما عليه عهدا ، وتصاغرت الدولتان أمام هذا الشعب العملاق .

فهذا مراد بك يبدى رغبته للفرنسيين « فى أن يعيش فى سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى فى مصر » ، واعترف (كليبر) بإمارة مراد بك على الصعيد فى مقابل خراج يدفعه له ، وهكذا تم الوفاق بين اللصوص .

تحالف المماليك مع الشيطان ضد مصر . التى آوتهم وأطعمتهم . ولكن عز على الصعاليك المماليك أن يروا حليفهم كليبر . وقد صار قاب قوسين أو أدنى من لهيب الثورة الشعبية الجارفة . فأسرع مراد إلى كليبر ، وتطوع له بحل ينجيه من عذاب أليم . . أشار عليه بحرق القاهرة . لإخماد ثورة القاهرة ، وأرسل مراد - كما يقول (ريبو) - المراكب من الصعيد محملة بالمواد الملتهبة لإضرام النار . وشهد بذلك (جالان) وأضاف أن مراد بك أرسل الأحطاب بالمراكب عبر النيل ، فلما وصلت لم يسمح لها الفرنسيون بتفريغ حمولتها إلا بعد دفع الرسوم الجمركية المقررة على « حمالة الحطب » .

وأشعل الفرنسيون النار فى الأحياء الآهلة بالسكان . فهلك الآمنون الوادعون . تحت الأنقاض : فى الأزبكية ، وباب الحديد ، وبولاق وباب الشعرية ، والفوالة ، وباتت القصور والمتنزهات أطلالا وخرائب وزادت النار اشتعالا . بفضل أطنان القنابل التى أمطر الفرنسيون بها مدينة القاهرة . من كل جهة . وتسابق جنود الاحتلال كالكلاب المسعورة يفتشون فى الأنقاض . وينبشون الجثث والأشلاء ليسلبوا ما كان عليها من الحلى والمجوهرات . « واستمر ضرب المدافع والقنابل والبنادق والنيران ليلا ونهارا حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن » كما يقول الجبرتى .

وحصد الجناة وبال ما غرست أيديهم . . فقد جلا العثمانيون عن مصر واغتيل (كليبر) بطعنة من خنجر سليمان الحلبي . . وانقشع الكابوس الفرنسي . : إلى غير عودة . . وشيع المصريون جنود الاحتلال . . باللعنات ومنذ ذلك الحين حتى اليوم وهم يخوضون فى أوحال الخيبة والفشل مدى قرن ونصف قرن من الزمان . . فى مصر . . فى سوريا . . فى مراكش . فى تونس . . فى (ديان بيان فو) . . وفى الجزائر . .

واللیالی من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيبه

ــ فاروق . . وحريق سنة ١٣٧١ هـ ــ

دار الفلك دورته . . وظن الغافلون أنه لا يدور . . وعاد فاروق السفاح يختزل سيرة أسلافه . من ورثة نيرون) . وسلالة (نمرود) . . الذين أحرقوا . . الفسطاط . . والقطائع . . والعسكر . . والقاهرة . . فجعلت منهم عاصمة مصر . . عبرة التاريخ . .

هل غاب عن فاروق . . أن حريق القاهرة . . سيكون خاتمة لمائة وخمسين سنة من تاريخ أسرته . . ؟ . .

وهل غاب عن فطنة النحاس وسراج الدين . . أن حريق القاهرة . سيكون كالجلاد العملاق الذى خنق آخر ملك بأمعاء آخر وزير ؟ ؟

وهل غاب عن دهاء محترفى السياسة . . من زعماء الأحزاب . . أن شعب مصر سنة ١٩٥٢ . . وطوال ظروف هاتيك الحرائق الماضية . كان لا يمكن أن يبوء بإثمها وعارها . . ؟ ! !

ولكنهم . . هم دائما وأبدا الدخلاء الغرباء . . المتآمرون على

الشعب . . المتجرون فى قوته . . المتربصون بمستقبله . . القاعدون له بالمرصاد . ، هم الذين أضرموا النار . . فاحترقت بها أيديهم . .

ومن المهازل التى برزت معالمها فى هذه المحنة . . أن بعض موظفى الشركات التى التهمتها الحرائق ... كانوا يسرقون . . ويتقدمون ببلاغاتهم إلى البوليس . . ليلصقوا التهمة بأحد أفراد الشعب . ولكن تحقيقات النيابة كشفت ما وراء الستار ... فقد سرق موظفو شركة (سبيكو) للمقاولات الهندسية . . دولارات سويسرية ذهبية ، وأوراقا مالية..من أدراج المكاتب والخزائن . . وادعوا أن مجهولين . . من الغوغاء . . هم مرتكبو السرقة . . أثناء حريق القاهرة . . المفترى عليه .

فهل يصح فى الأذهان أن طلبة المدارس والجامعات والموسيقيين والعمال . . وجنود البلوكات . . ورجال البوليس . . قد ألف بينهم سبق الإصرار على الاتفاق الجنائى . . ؟

وهل يصح فى الأذهان أن هؤلاء الغلمان .. الذين حوكموا .. ولم تزد أسنان بعضهم عن الثانية عشرة . . هم الذين أحرقوا القاهرة ؟

إن الذين أحرقوا القاهرة عصابة مؤلفة من أربعة عناصر :

حكومة الوفد . . وبرلمان الوفد . . والملك فاروق . . والإنجليز . .

وكان لكل عنصر دوره المرسوم له . . حسب خطة موضوعة . . علم أو لم يعلم . . فعل أو لم يفعل . .

ـــ حكومة الوفد : بتخاذلها ، وعدم اتخاذها التدابير اللازمة لحفظ النظام ، الكفيلة بالأخذ على أيدى العابثين بالأمن الداخلى قبل حدوث مالا تحمد عقباه ، وهذا الترك هو الذى مهد للجريمة ، فعبرت على قنطرته على حين غفـــلة من حراس الأمن . . والترك معاقب عليه قانونا وعقلا ، وشرعا . .

ـــ برلمان الوفد . . طبل وزمر ، بالإجماع ، ولم يجرؤ واحد من النواب أو الشيوخ على تعليق الجرس فى عنق القط ، ولم يشأ أحد منهم أن يحرج الحكومة ، بدافع التضامن الحزبى ، والانتصار للحكومة ظالمة أو مظلومة ، ولو كان هؤلاء يستحقون شرف التمثيل عن الشعب والتحدث بلسانه ، لأمسك بخناق الحكومة لتكشف لهم عن أوراقها ، وبذا يطمئن الشعب إلى ممثليه ، والدفاع عنه عمليا أمام سائر الأجهزة ، ولكنه والحق يقال ، كان أشبه بالرئة المعطلة ، لا شهيق ولا زفير .

ـــ الملك فاروق . . بتنكره للشعب ، وتغاضيه عن كفاح الشعب ، وانغماسه فى اللهو والمجون ، غير عابئ بأوجاع الأغلبية الساحقة ، الغارقة فى الأوحال إلى الأذقان ، وإقامته المآدب تلو المآدب ، بينما المآسى فى كل بيت على الشهداء ، وبينما المظاهرات والحرائق تزحف زحفاً سريعاً كأنها والخراب على موعد . .

ـــ الإنجليز . . بمؤامراتهم وتدبيراتهم ، واستغلالهم للخونة

المأجورين لتعكير الجو على الشعب ، فى كفاحه النبيل، وتعطيله عن الحصول على ثمرة النصر المنتظر ، لهذا وضع الإنجليز جميع العراقيل فى طريق الشعب ، وقد دنا أجل الاستعمار ، وبدأ يلفظ آخر أنفاسه ، فى مصر ، بعد أن لفظها من قبل فى الهند وإيران والسودان .

هؤلاء جميعا ، هم الذين جمعوا الحطب ، وأشعلوا النار ، وألقوا بالشعب فى أتونها المتقد ، فكانت بردا وسلاما على (إبراهيم) ، وخزيا ووبالا على (النمرود) ..

رب ضارة نافعة

ـــ ناقوس الخطر ـــ

بعد أن أعفيت وزارة النحاس من الحكم على أثر حريق القاهرة .. تقلب على دست الحكم أربع وزارات فى خلال ستة أشهر . إن دلت إقالاتها أو استقالاتها على شيء . . فإنما تدل على عبث (فاروق) بالدستور . . وتدخله السافر فى شئون الحكم . . بما يحقق له ولحاشيته مآرب ومنافع . . دونها كل جشع . . ألم يكن هذا وحده كافيا لدق ناقوس الخطر . . لتنبيه الغافلين ، إلى سوء المصير . . ؟ !

ومما كان يبعث على الأسى حقا . . أن فاروق عاد فكلف حسين سرى . . بتأليف وزارة جديدة .. وفى الوقت نفسه كلف محمد بهى الدين بركات . . بنفس المهمة . . رئيسان فى آن واحد . . يعملان على تأليف حكومة واحدة . .

والصحف بدورها تنشر أنباء هذه الاتصالات . . وخط سير المشاورات . . وصور المقابلات والصالونات . .

فهل كان كل من الرئيسين المكلفين بالموضوع يجهل ما يفعله الآخر .! لا أظن . . ولكن هو التسابق الذى يؤدى إلى الحصول على قصب السبق . من ناحية وتسلى فاروق بمشاهدة المتسابقين يلهثون ويعرقون ،

المهم أن يوم ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ يطلع على الناس . والصحف والإذاعة . . ووكالات الأنباء تحمل نبأ تأليف وزارة برئاسة نجيب الهلالى . . فيضع الناس رءوسهم بين أيديهم ، ويغمضون عيونهم ، خشية الإغماء .

وقبل أن تدق الساعة تسع دقات . . يقطع برنامج الإذاعة فجأة صوت غير معروف . . تبين فيما بعد أنه صوت أنور السادات ، أحد الضباط الأحرار ، وهو يذيع بنفسه من محطة الإذاعة بالقاهرة ، نبأ استيلاء الجيش على المرافق الرئيسية .

فى هذه الساعة .. كانت الإسكندرية ـ عاصمة البلاد الثانية ـ مركز النشاط فى ظاهره .. نظرا لوجود الملك بها .. والوقت صيف . ودولاب العمل . . مقره الصيفى . . دار الوزارة ببولكلى ، برمل الاسكندرية . والوزراء والأمراء . يصطافون فى مصر وفى خارج مصر .. كل فى فلك يسبحون . .

وعندما أذاع أنور السادات هذا البيان ، كان الوزراء لا يزالون يغطون فى سبات عميق ، بعد المجهود المضنى الذى بذلوه فى الاستعداد لتقبل التهانى فى مكاتبهم ذات المقاعد الوثيرة ، والستائر الشفافة ، والمراوح الكهربائية ، والأكواب المذهبة المثلجة . .

وغاب عنهم وعن غيرهم من العالمين ببواطن الأمور ، أن ناقوس الخطر قد دق ، وأن الخطر الذى كان على الأبواب ، أخذ يحبو من تلقاء

نفسه حتى أصبح محدقا بكل شيء ، ومطبقا على كل شيء ، وإذا بالرقاب في قبضته . .

طلع الصباح فأطفأ القنديل الهزيل ، وضرب موسى بعصاه ، فبهت الذين طالما سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجد الجد ، وآمن الجميع بالمثل السائر : (اليوم خمر . . وغدا أمر) . .

فقد ظهر « الضباط الأحرار » وأعلنوا الثورة ، لا بل بلغت بهم اللباقة إلى حد أنهم تركوا الشعب يتهامس ويتغامز حتى قال الشعب بنفسه إنها ثورة . . وتلك المنى لو أننا نستطيعها . .

إن الضباط الأحرار قطفوا الثمرة قبل الموعد الذي حددوه لنضجها بسنتين ، ولكن جدت عوامل أخرى رفعت من درجة الحرارة ، فأسرعت الثمرة إلى غاية نضجها ، فقد أينعت وحان قطافها . .

إنهم وهم كانوا لا يزالون بصدد استكمال معداتهم للجهر بالثورة سنة ١٩٥٤ في سرية تامة ودقة حاسمة ، رأوا أن الوقت كالسيف ، إن لم يقطعوه قطعهم هو ، وأن الزمن كالأفعوان إن لم يعجلوا به عجل بهم ، وأنهم إذا لم يجنوا ثمرة (التكتيك) الذي سهروا في وضعه ليالي وأياما ، فقد يأتي سياسي مفلوك أو غاصب مغرور فيستولي على مصر « بوضع اليد » وتلك هي الطامة الكبرى . .

والظروف حقا كانت في حالة ميوعة ، تركة مثقلة بالديون ، والشعب مثخن بالجراح ، مما يوحي بأنها ظروف غير مواتية للجهر بالثورة ، فلا يزال في العمر بقية ، والتاريخ جزء من العلاج لو أحسن استغلاله ،

وما يزال هناك متسع للبحث وإدمان التفكير وإحكام التدبير . .

وبالمراجعة النهائية للدراسات السابقة فى مسودة التكتيك السرى ، تبين أن الهدف هو هو لم يتغير ، واضح فى الأذهان كما هو بالخط العريض مسطر على الأوراق ، « عدل نظام الحكم . . تصحيح الأوضاع . . ووضع الأمور فى نصابها » هذه هى الخطوط الرئيسية فى إطارها العام . .

غير أن عوامل لم تكن فى الحسبان جعلت الضباط الأحرار يسبقون الزمن ويطرحون من حسابه سنتين ، لقد نضجت الثورة بسبب غليان دماء الشهداء فوق نيران القاهرة .

فالنار بالماء الذى هو ضدها تعطى النضاج وطبعها الإحراق

— سماسرة السياسة —

نهض الهلالى من فراشه مذعورا ، وقد أيقظوه من حلم جميل لم يتم ، فقام يفرك عينيه ، وإذا بشبح العملاق يخايله ، فيحاول أن يطرده بلا جدوى ، أخيرا قامت الوزارة الهلالية الجديدة ، وقعدت وانتهت إلى أن الأمور أقل مما تتصور ، فيجب ألا تؤخذ بأكثر مما تستحق من جدية . .

واختلط عليها الوضع، فعمدت إلى أسلوب الوعد والوعيد ، وقامت بدور السمسار ، لصالح الملك ، فنيت بالفشل مساوماتها وعروضها : حاولت إغراء « قادة الثورة » ، والوقوف على مدبريها ، والإطاحة برءوسهم ليكونوا عبرة لكل من يفكر فى مثل هذا العمل العدوانى على كرامة العرش ، وجلالة صاحبه ، فما بالك إذا وصف هذا التمرد ،

أو تلك المظاهرة ، بأنها محاولة لقلب نظام الحكم . ؟ !

أين فاروق ؟ ، أليس من حق الهلالى أن يبحث عنه ، ويستشيره فيما أعضل على عقول وزرائه من مشاكل طارئة لم تكن فى الحسبان؟ ! فاروق فى قصر المنتزه ، يستجم ويستحم ، من عناء الراحة ، ويتسلى بالفرجة على سباق كلاب القصر ، ذلك السباق الذى انطبع فى ذهنه دائماً كلما اعتزم تأليف وزارة جديدة .

ويرفع رئيس الوزارة إلى المسامع السامية جلية الأمر على صاحب العرش ، الذى صار اليوم غير « المفدى » فلا يفهم الملك من كلام الرئيس النحيف إلا أنه جاء ليقوم بدور (مضحك الملك) . . ولذلك أخذ يقهقه . قهقهات متواصلة . وبعدها استلقى على قفاه . ولم يتمالك الهلالى نفسه ، فاستغرق هو الآخر فى الضحك ، ناسيا أنه فى حضرة مولاه . .

ضباط ؟ . ! هل نسى هؤلاء الجاحدون نعمة الملك عليهم يوم حباهم بعطفه السامى ؟ ! ومتى ؟ والقاهرة تحترق ؟ ! وهل نسى هؤلاء الذين شعارهم : الله والملك والوطن ، أن الملك قد أهداهم أعز شىء عنده وهو ابنه ؟ !

فهل صحيح أنهم يتنكرون اليوم هكذا — ما بين عشية وضحاها — لأنعم الملك؟ وأين إذن حيدر؟ . . والمهدى ؟ . . وعطا الله ؟ ! وأين إسماعيل شيرين ؟ ! الذى فرضه الملك على الهلالى وزيرا للحربية . . ؟ !

انقلاب ؟ ! . . مستحيل . فإن الأمر الملكى لم يجف مداده بعد ،

هى زوبعة فى فنجان . . مجرد بصقة تطفئها . .

ولكن لا شك أنه قد دار فى خلد الملك أن الأمور قد تتطور من سئ إلى أسوأ ، وحاول أن يفكر — مجرد تفكير فقط — فى الاتصال بالإنجليز والأمريكان ، يطلب العون لشد أزره فى محنته ، فإن عيروه بموقفه الصامت بالنسبة لمعركة القنال ، فلديه من الأكاذيب ما يبرر به استنكاره للنحاس ومواقفه ، وعندئذ يتظاهر الإنجليز بالبلاهة وهم يسمحون لهذه الخدعة أن تمر عليهم متباهين . ولكن المظاهر وقرائنها دلت على أن الملك لم يسمح لتفكيره السامى أن يتناول مثل هذه السفاسف . .

وفوجئ الملك بثورة فى نفسه ، فأخذ يفتل شاربيه بحركة لا إرادية ، وإذا بالدم يغلى فوارا موارا فى عروقه ، وبدأ يشعر برجفة باردة تسرى فى مفاصله ، فقد أبلغه عبدالله النجومى أن الدبابات الثقيلة تحاصر القصر ظلت تزحف من القاهرة تحت جنح الظلام حتى طلعت صباح يوم ٢٦ يوليه ، والجيش بوحداته فى وضع استعداد . .

زاد الملك من كمية العروض والمغريات فباءت كلها بالفشل ، وإذا بعلى ماهر رئيس الحكومة التى فرضتها الثورة على الملك باسم الشعب ، يدخل عليه يطالبه بالتوقيع على وثيقة التنازل عن العرش لولى عهده ، ومغادرة البلاد قبل السادسة من مساء اليوم . .

وشهد شاطىء « رأس التين » غروب آخر يوم للملك فى مصر ، ونكس العلم ، وطوى الجندى المصرى علما آخر وأعطاه للملك قبل مبارحته البلاد إلى منفاه حسب التقاليد . .

وأسدل الستار الختامى على مائة وخمسين سنة ثقال طوال ، وتم كل شىء بدون إراقة نقطة من الدم ، وخلا العرش من صاحبه ، وسقط التاج من فوق رأسه ، وركب « المحروسة » التى أقلت جده إسماعيل بعد خلعه هو الآخر ، وودعه الشعب كما ودع جـــده ، والجماهير تقول له « انزل » إذ رأته يتلكأ فى النزول ، وركب هو وأهله ومعهم صناديق الذهب التى صاغها من قطرات الدماء والدموع التى سكبها الشعب ، وأقلعت المحروسة ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . .

— شمس الغروب —

بارح فاروق أرض الكنانة بعد خلعه من العرش ، عرش آبائه وأجداده الذين تربعوا عليه . وتنازل عن الملك نزولا على إرادة الشعب ، فهل كان هذا هو نهاية المرمى البعيد الذى رسمته « الثورة » ؟ !

رأت الثورة من الحكمة ألا تكشف أوراقها من أول يوم ، فالسفر طويل والزاد قليل ، والجماهير ما تزال تعمل بعواطفها المرهفة ، أكثر مما تقدح زناد فكرها ، وهو المطلوب هنا وبالذات العقل المدرك الواعى الذى ينتهى إلى إدراك هذه القاعدة الذهبية الكبرى وهى :

« تنظيف السلم يجب أن يكون من فوق »

ومتى ما تلألأت هذه الحقيقة فى الأذهان ، وجب العمل بمقتضى مفاهيمها ومضامينها ، وهذا هو النهج السليم الذى يتمشى مع طبيعة الأشياء التى تأبى الطفرة وتستلزم الرزانة لا العجالة . .

وها هى الشمس قد انحدرت إلى مغربها ، وتركت وراءها فراغا هائلا ، يجب أن يسد ويملأ . . عملا بقانون « القصور الذاتى » . . والشمس الغاربة ، هى الزعامة التى أفلست من بعيد . فماذا يا ترى يخبئ القدر . . ؟

— ديك على غير جداره —

رحم الله أمير الشعراء إذ يقول : « ديك على غير جداره . . خلا له الجو فصاح . . وكلب فى غير داره . . انفرد وراء الديار بالنباح » . . هو هو بعينه ذلك الإنجليزى المتعجرف . . الحارس للقناة » . .

أما وقد طردنا الملك . . ونبذنا الأحزاب . . فلنلتفت إلى هذا الدخيل الرابض على القناة شمالا وجنوبا . . الجاثم على أنفاس الشعب يكاد يزهقها . . أعوانه وأذنابه . . أى عملاؤه . صاروا فى خبر كان ، فما باله هو لا يزال على قيد الحياة حيا يرزق . ؟ ! وماذا يسوغ له قانونا . أن يبقى حتى اليوم ؟ ! وبعد أن وضعت الثورة يدها على كل جهاز سرى . . فعطلته وشلت حركته .

طردنا المستعمر من عقولنا وقلوبنا . قبل أن نطرده من بلادنا ، وطردناه من السودان حتى تحررت خيراته لأهله . وختم صاغرا على وثيقة الجلاء عن مصر ، وفرح هو بقيود قبلناها على أنفسنا .

ويومئذ ظن محترفو السياسة كل سوء فى خبرة العسكريين . « الذين

ضيعوا البلد » ولم يصدر نقد فى هذا الصدد اللهم إلا عن ضيق أفق ، وعدم اتزان ، وحب الظهور ، وشقشقة رجعية .

وجلا آخر ديك عن غير جداره ، وآخر كلب فى غير داره ، بقيت تلك القناة ، حفرها آباؤنا وأجدادنا . وجرت ولا تزال تجرى فى أرضنا ، ويستغلها مع ذلك أرباب العصابات الاستعمارية منذ كانت الغفلة تنطلى بكل سهولة على « أهل زمان » ولو بطبق من المكرونة .

وفى مساء ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ ، فى الذكرى الرابعة ، للثورة ، ذكرى طرد فاروق . وحل الأحزاب ، وإلغاء الألقاب ، وتحديد الملكية ، وإعلان الدستور . وتحقيق الجلاء ، كان لا بد من قنبلة جديدة . يرن صداها فى أروقة الاستعمار ، ويلفت دويها كل من كان به صمم ،

كان لا بد من « تأميم شركة قناة السويس » . وإلى هنا كان السلم الكبير قد تنظف تماما بالطريقة المألوفة . من فوق إلى تحت .

وإذن فلنصعد بمواكبنا درجة ، إلى قمة الصرح الشامخ الذى بناه لنا آباؤنا لنسكن فيه ، نحن لا أعداؤنا ، ثم نورثه بأيدينا للأولاد والأحفاد ، جيلا بعد جيل ، لا للديكة أو الكلاب .

— ضربة معلم —

كانت سياسة تأميم شركة القناة « ضربة معلم » لأنها حقا مغامرة باسلة سبقتها استحكامات فكرية وتعزيزات عملية فعالة ، واتخذت لها جميع الاحتياطات وفوق ما تستلزمه الاحتياطات ، وأحصيت لها العواقب والدرجات ، وكفى أن ثمرتها العاجلة التى جنيناها هى أن الشعب

والجيش والحكومة كتلة واحدة متماسكة أشد ما يكون التماسك . .

دخل جمال عبد الناصر معترك السياسة الدولية من باب السلام ، وأعلنها مدوية « لا شرقية ولا غربية » ونادى بالقومية العربية ، وهتف من كل قلبه « نسالم من يسالمنا و نعادى من يعادينا » ، وندد بالأحلاف العسكرية ، والتجمعات الدفاعية من خارج المنطقة ، والتزم الحياد الإيجابى ، وقال لإسرائيل : حذار يا خضراء الدمن . .

وعندما ناشدت مصر السلام على لسان « جمال » ظنت انجلترا وفرنسا وأمريكا أنه يستجدى تقدم كأى زبون شريف السمعة لشراء السلاح والقمح ، فأبوا إلا بشروط خانقة ، قال لهم : ساهموا معنا فى مشروعاتنا العمرانية ، لا فائدة ، والاستعمار هو هو الاستعمار . .

لم ييأس مدرس « التكتيك » وقائد الثورة ، فطرق على الباب الشرقى طرقا خفيفا لطيفا ، فانفتح الباب على مصراعيه وقوبل بكل ترحاب ، لاستار حديدى ، ولاقيود ولا أغلال ، لامطارق ولامناجل ، وتم تسليح مصر ، وتموين مصر ، أخذت كفايتها وزيادة ، وأهدت إلى الجارات :صفقات تجـــارية حرة ، ومبادلات عادية ، وشروط سخية للغاية . .

و « التسلح » هو نقطة التحول الكبرى فى تاريخ الشرق كله ، تدفق علينا السلاح من كل صوب ، سلاح الجو والبحر والبر ، كل يوم حتى امتلأت المستودعات ، وتحسس جمال عبد الناصر ، الأرض التى نقف عليها ، والساتر الذى نسند إليه ظهورنا ، فاطمأن إلى أننا فى مركز حصين ووضع متين ، فأحكم التصويب على الهدف وضغط على الزناد وأطلق القنبلة الزمنية ، وفى الحال تمت إجراءات تأميم الشركة المنحلة . .

يومئذ كان المصريون شيوخا وشبابا رجالا ونساء ، قد فرغوا جميعا من التدريب العسكرى ، وأصبح كل مصرى ومصرية على أتم استعداد لخوض المعركة من غير تردد ، فالروح المعنوية عالية ، والسلاح موفور ، الأزهر ، شيخه الأكبر ، وأساتذته وطلابه ، والوزراء ووكلاؤهم ، كبار الموظفين ، الموظفون ، العمال ، الأمهات ، والفتيات ، أرباب الحرف والمهن ، جميعا امتلأت بهم معسكرات التدريب بكل سرعة على أحدث أساليب الدفاع والمقاومة الشعبية . .

وذهل الإنجليز واختبل غزلهم ، فقاموا بمثل المظاهرة الرباعية سنة ١٩٥١ ، ولكنها هذه المرة كانت على نطاق واسع ، كانت أشد من سابقتها مراعاة لمقتضى الحال ، ولمتابعة التطورات الناشئة عن سياسة التسلح فى مصر ، تسلح الشعب والحكومة . .

وبريطانيا — وأذنابها التى طالت وتكاثرت هذه المرة — تستعد لمنازلة .. ماذا ؟ القصر .. لا .. الحكومة . ؟ . لا . . الشعب .؟. لا . . وإنما تنازل جبهة واحدة عريضة ، تنازل عملاقا عسكريا لا مدنيا ، لم يصنعه الله من طينة الأقزام ، الذين طالما قوست ظهورهم انحناءات الولاء لجلالة الجالس على العرش ، وإنما هو دم جديد يسرى فى أصلاب عريقة ، ليس فى حاضره أو ماضيه أدنى شـائبة من « الرجعية » أو « التقدمية » بل قوام بين ذلك . .

من أجل هذا ، بذلت انجلترا قصارى جهدها فى تأليف رواية « جمعية المنتفعين بالقناة » بقصد الاستيلاء بالقوة على صاحب الدكان ، واقتسام بضائعه مع زبائن المحل قرصنة من نوع جديد . . !

وعملت « الجمعية » على تدبير المقالب ضد مصر ، وتجر رجلها إلى المجال الدولى ، فكان الحق فى صف مصر ، ولواء السلام خفاق فوق رءوسنا . وأعددنا أنفسنا للتفاهم الودى فى « مؤتمر جنيف » والمساهمة بجميع إمكانياتنا فى خدمة العالم ، وتبادل المنفعة ، وفى الطريق إلى جنيف لاذوا بشريعة الغاب ، واستلوا الخنجر المسموم ، وطعنوا السلام من خلفه . .

ولم يتخلص (أنطونى إيدن) من العقلية الاستعمارية البالية ، التى أكل الدهر عليها وشرب ، وكان فى حسبانه أن بمصر خونة من الطراز القديم ، وأن فلول الرجعية ، ورواسب الحزبية ، لا تزال حية تسعى ، ولكن طاش سهمه وخاب فأله ، فقد أمسكت مصر بخيوط المؤامرة ، وتغدينا بهم قبل أن يتعشوا بنا ، وتقلصت الجمعية حتى صارت تعرف بـ « العدوان الثلاثى » .

لقد كد (إيدن) ذهنه لتبرير جريمته الشنعاء التى ارتكبها فى حق مصر ، بل فى حق هيئة الأمم المتحدة ، ودولها الأعضاء بالذات ، بل فى حق الرأى العام البريطانى نفسه ، فما كان منه إلا أن وقف فى مجلس العموم ، فأعاد إلى الأذهان ضحايا حريق القاهرة ، لهذا اختارته العناية الإلهية للأخذ بالثأر من المصريين . . وهكذا « يرضى القتيل وليس يرضى القاتل » .

كان هدف العدوان القضاء على مكاسب الثورة . . التى حققتها للشعب المصرى . . والعالم العربى . . فى أربع سنوات . . وقص أجنحة « النسر » المصرى . . حتى لا يزاحم الغيلان . .

هذا النسر الوليد . . الذى طار منذ نبت الريش فى جوانبه . . ولفت إليه الأنظار فى مدى أربع سنوات رجحت فى موازين التاريخ مئات السنين التى سلختها مصر . . فى ذل وهوان . .

— مقبرة الغزاة —

وفى الأسبوع الأخير من أكتوبر سنة ١٩٥٦ . . شنت دول المؤامرة غارة شعواء على مصر . . ولقنت كل دولة منها كل رضيع قبل أن يرشد أن جمال عبد الناصر « سرق القناة » . .

وكانت جزيرة قبرص . . نقطة تجمعات المتآمرين : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل . . وأمريكا . . ولكن من خلف الستار . . إنذار بريطانى لمصر . . رفض طبعا جمال عبد الناصر . . وليكن ما يكون . . وإن عدتم عدنا . . وبدأت (إسرائيل) بتمثيل (مخلب القط) . . فقامت بمناوشات على الحـــدود . . خف إليها الجيش بوحداته . . وإذا بريطانيا وفرنسا . . تضربان فى بور سعيد . . ضربا متواليا . . وقصفا متزايدا بلا هوادة . . حتى يقع الجيش بين فكى كماشة . . وتتم إبادته فى (سينا) . .

انكشفت الخطة الدنيئة . . وفطن لها مدرس (التكتيك . .) . . وابتسم . . وسرعان مادوى صوت العرب . . فى جميع أقطار العرب . . وإذا برقعة القتال تتسع على الاستعمار . .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

وعجلان ما تمزقت مواصلات العدو . . وتقمص الفدائيون أرواح الصواعق الملافاة « الشياطين الحمر » . . وأصبح العرب جميعا فدائيين بحكم الفطرة . . لا فى مصر وحدها . . بل فى كل ميناء عربى ، وعلى امتداد أنابيب البترول العربى . وتتابع نسف الذهب الأسود ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا . .

وكانت بور سعيد ، رأس الجسر ، وشهد العالم لونا جديدا للكفاح ، لم يؤلف منذ سنة ١٩٥١ ، بل هو شئ آخر ، لا مثيل له تحت الشمس : الشعب مسلح ، والجيش مسلح ، والطلبة والعمال والفتيات ، حتى الطلبة العرب ، وإصرار عنيف على الدفاع ، إيمان يهد الجبال الرواسى ، ولا يتزعزع ، رئيس الجمهورية بملابس الميدان ، وفى سيارة الجيب ، إخوته مثله ، الوزراء فى الخطوط الأمامية ، فى خط النار ، قواتنا الانتحارية ، وضفادعنا البشرية ، تتلوى بين طيات الرمال ، وفى ثنايا الأمواج ، (جول جمال) الضابط السورى يستشهد جنبا إلى جنب مع أخيه المصرى ، والقومية العربية ، أصبحت مجسمة ، درعا واقيا للعروبة من كل استعمار ، مهما تكن أساليبه ، ومهما تعددت ألاعيبه .

وهكذا : أمم (جمال) شركة القنال ، فصمدت بور سعيد للعدوان الثلاثى ، وانتهى بانتصار الثورة ، والقومية العربية .

ورب ضارة نافعة .

بين عهدين

— هى القيادة —

المنطقة هى هى ، والشعب هو هو ، ولكن هى القيادة ، القيادة هى التى أحكمت الخطط ، فلم تسبق واحدة منها الأخرى ، ولم تتأخر عنها ، وهنا فقط يصح أن نقول فى غير تهكم « كل شىء على ما يرام » .

كان الجو ملائما كل الملاءمة ، للبذل والتضحية ، لماذا ؟ ! لأن الشعب ، ورئيس الجمهورية ، والحكومة ، والجيش ، والبوليس ، جميعا وقفوا جميعا على خط مستقيم واحد ، والخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين . .

وكانت مصر لهؤلاء جميعا على قدم المساواة ، ولمن بعدهم وحدهم لهذا فالجميع يفتدونها بالأرواح جملة لا فرادى ، بالملايين لا بالآحاد والعشرات ، تلك هى « مصر الثورة » ، « مصر الجمهورية » .

أما مصر الملكية فكان فيها الجهاد على عاتق عشرات ، لاغير ، أرخصوا فى المعركة دماءهم ، بينما اللصوص يجنون ثمار الشجرة التى ردوها بالدم ، « حرب عصابات » ، لا بل « حرب أعصاب » .

معركة يخرج منها الشعب كما يخرج الفلاح من المولد بلا حمص ، ويجتمع الملك والحكومة وآذناب الأحزاب ، وسدنة الإقطاع ، وأصحاب المصالح لاقتسام التركة قبل أن يواروا الجثة فى أطباق التراب .

فى مصر الثورة ، لم تكن الحكومة تخفى على شعبها خطوات المعركة دقيقة دقيقة ، وكانت تتخذ من الحقيقة والواقع ، مادة لتموين الشعور الوطنى ، وشحن الوعى القومى ، إيمانا بالعزة والنصر . .

وما بين عشية وضحاها ، أصبحت مصر السابحة فى نعمة السلام قلعة كبرى ، تبح بالذخيرة الحية ، وتضج من تحت بركان خامد ، المعدات كافية لمواصلة الكفاح ، والظروف مهيأة ، والخطط مستوفاة ، فلتتسع ميادين الحرب ، ولتزدد شهورا على شهور ، فنحن لها . .

فى مصر الثورة ، خف الوزراء بملابس الميدان ، والمدافع الرشاشة إلى المعركة مع (حسنين) و (أبو سريع) و (أم على) صفا واحدا مع كمال الدين حسين وحسين الشافعى وعبد اللطيف البغدادى . . وهم هم الوزراء الذين سبق لهم خوض غمار معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ متطوعين ومجندين ، فإذا بهم فى القنال سنة ١٩٥١ متطوعين أو متنكرين ، وفى ثورة سنة ١٩٥٢ متكاتفين متكتمين ، فهم اليوم سنة ١٩٥٦ أكثر المواطنين شوقا إلى الزحف وأقواهم حنينا إلى ساحة الشرف ، وأثبتهم جنانا فى المحن . .

لقد صارت مصر لنا ولهم ، بنا وبهم ، قيادة وحكومة وشعبا ، وانقشعت من سماء مصر ، تلك السحابة السوداء التى حجبت عنها شمس الحرية ، وانزاحت من طريق مصر تلك الحجرة الكأداء التى كانت سببا فى تعويق المواكب الزاحفة عن درك أهدافها .

كيف كان يمكن الوصول إلى النصر ، وعلى العرش ملك دخيل

متغطرس ، ليس من جنسنا ، ولا يتكلم بلساننا ، ولا يفهمنا إن كنا في أفراح أو أتراح ، ملك مختاس مدلس ، يرشو ويرتشي ، يتآمر مع السماسرة على صفقات الأسلحة الفاسدة ، يطعن بها جيشه وحرسه من الخلف ، ضاعت هيبته أمام أمه وأخواته ، وأمام السوقة ، وجهازه الفكرى عقيم معطل ، يحكم بغرائزه ونزواته ٢٢ مليونا من البشر ؟ !

خلت مصر الثورة من مثل هذه المعوقات ، لأنها لم تعترف بسياسة « الطريق المسدود » . .

— هنا . وهناك —

معركة المعاهدة كان طابعها (الارتجال) ومعركة التأميم كان طابعها (التكتيك) هناك وقف الشعب وحده في وجه أعدائه مجتمعين ، وهنا وقف الشعب العملاق ، العملاق جدا جدا ، أشبه ما يكون (بحصان طروادة) ، وفي أحشائه جمال عبد الناصر كحاكم ومحكوم ، وجيش وبوليس ، لأنه ابن الشعب ، والشعب معه ومن حوله ، ولا بد للشعب أن ينتصر . .

هناك أحجم الجيش ، أو هكذا أريد له — فضاعت هيبته وهيبة قادته وحكومته ، وهنا كان الجيش مع الشعب في كل مكان ، مع الشعب ممتزجا به ، متفاعلا معه ، قائدا ومرشدا ومنظما ، في المقدمة ، في الميمنة ، في الميسرة ، في القلب ، لا في المؤخرة . . أبدا . . بل مع الشعب في التدريب قبل المعركة ، ومعه في الكفاح أثناءها ، وفي رأس قائمة الفدائيين الانتحاريين . .

هناك كان الغرض ابتزاز الأرواح ، والصيد فى الماء العكر ، وهنا كان الغرض استرخاص الأرواح لجنى ثمرة النصر للجميع .

هناك لم يكن للنضال أهداف بارزة ، وهنا كان الهدف غير متعدد ولا مهزوز ، بل معلوم معروف .

هناك برح الخفاء عن مؤامرات العرش والحكومة ، وهنا انكشف الغطاء عن جوهر الثورة ، فزادت بريقا وتوهجاً ولمعانا . .

هناك بلغ السخط على كل شئ مداه ، وهنا بلغ الرضى عن الثورة قصاه . .

هناك تصدعت أركان الحكم فى الداخل والخارج ، وهنا تماسكت أركانه ، وساندنا فى كفاحنا وحقنا ضمير العالم ، ووعى الشعب ، وتضامن العرب . .

هناك لعبت أيدى الاستعمار ، فخلفت جوا من التخلخل ، تهادت فيه الحكومات ، تباعا فى أوقات متقاربة ، كأوراق الخريف ، وهنا أدى التماسك والتساند الداخليان ، والعطف والعون الخارجيان إلى انهيار جمعية المنتفعين ، والسخط على (إيدن) و (موليه) و (بن جوريون) ومن شعوبهم قبل شعوب العالم . .

هناك نجح الاستعمار فى حرق القاهرة ، وهنا نجحت القومية العربية فى بيع أساطيل الاستعمار فى سوق الخلفات . .

هناك استحلت بريطانيا ديوننا عليها وجمدت حسابنا فى بنوكها ، وهنا أممنا شركة القنـــاة ؛ وتم تمصير مئات الشركات والمصاريف والمؤسسات . .

وخرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وتم لنا النصر بإذن الله . .

ــ وفى الختام ــ

وفى الختام سيسجل التاريخ هذه الحقيقة الجلية الجليلة ، وهى لم يكن الجلاء فى ذاته غاية المراد من رب العباد ، وإنما كان مجرد خطوة ، حققتها الثورة ، وأتبعتها بخطوات ، فلما بدأ الاستعمار بالعدوان الثلاثى علينا ، تخلينا عن كل رباط بيننا وبينه ، وواجهناه بإلغاء « اتفاقية الجلاء » ، ضربنا بها عرض الحائط ، فى غير جلبة أو زفة ، ومضينا فى طريقنا المرسوم فى الحياد الإيجابى والقومية العربية ، والعمل المشترك من أجل التحرر والسلام ؟



فهرست

صفحة

٣ فاتحة

٥ من أجل مصر

١٣ الطرق السلمية المشروعة

٢٤ معركة القنال

٣٧ صحيفة السوابق

٥١ العرش فى خطر

٦١ العاصمة تحترق

٧٣ قبل الحريق وبعده

٨٤ البحث عن الفاعل

٩٣ يامضرمى النار أصبحتم لها حطبا

١١١ رب ضارة نافعة

١٢٥ بين عهدين

للمؤلف

١ — جرس المدرسة : شعر سنة ١٩٣٥

٢ — إدكو : دراسة سنة ١٩٣٦

٣ — وحدة الوادى : مسرحية شعرية سنة ١٩٤٧

٤ — مينا : « « سنة ١٩٤٨

٥ — ميلاد النبى : « « سنة ١٩٤٨

٦ — جهاد النبى : حوار تاريخى سنة ١٩٥١

٧ — عند الإمتحان : مسرحية شعرية سنة ١٩٥٢

٨ — الألعاب العربية : دراسة قومية سنة ١٩٥٦

تحت الطبع

١ — فاطمة الزهراء

٢ — معارك وانتصارات

٣ — كان يحكمنا عبيد

٤ — من لهيب الثورة

الناشر

مكتبة وهبه

١٤ شارع الجمهورية بالقاهرة

توزيع الجمهورية العراقية

مكتبة المثنى

بغداد

الثمن ١٥ ص

طبع الغلاف بمطابع شركة الشمرلي بالقاهرة